



الْحَيَوَانُ الْآخِرُسُ

الطبعة الثانية

أفاتار للطباعة والنشر ٢٠١٩

الترقيم الدولي i.s.b.n : 978-977-6756-04-5

رقم الإيداع ١٥٢٠٢/٢٠١٩

جميع حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

الْحَيَوَانُ الْأَخْرَسُ

رواية

أشرف الخضري

لوحة الغلاف : الكابوس
للفنان العالمي – هنري فوسيلي

إلى كلّ موهبةٍ عظيمةٍ
لم تجد يداً نُورانيةً تأخذُ بها إلى مَجْدِهَا
اللائقِ بعدُ
إلى كلّ الأشياءِ الحقيقيةِ في هذا الكونِ،
تلكَ التي لا تستحيلُ سرّاً أبداً.

لم تظهر في السماء نجمة واحدة هذه الليلة، فالرياح التي انطلقت من جهة الغرب جاءت مُحَمَّلَةً بِالْغَمَامِ المتكاثف وظلَّ يتراكم فوق بعضه البعض حتى أظلمت السماء فوق المدينة.

أصوات الرعد تهزُّ القلوب القلقة للمشردين والنائمين في العراء، المطرُ الجميلُ الذي يتغنى بسحره العشاق والشعراء هو كابوسٌ حقيقيٌّ مُفْرِعٌ لآلاف البشر الذين يرتعدون في العراء أو بداخل العشش المتأكلة الأسقف، أو على الأرصفة تحت بروجات الشرفات الإسمنتية، حيث يتفننُ المطرُ في التساقط بطريقة جانبية مائلة كزخاتٍ من الرصاص تُصيبُ أجساد المنكوبين المكومين فوق الأرض، تحت قسوة المطر تصير لياليلهم عذاباً لا تقدرُ أيُّ شمسٍ على محو آثاره المؤلمة إلا بمجيء الربيع، حيث تكفُّ السماء أمطارها، ويستنشق السائحون في أرض الله نسائم النسيان، ذلك الدواء المُعْجَزُ الذي كان ولا يزال الوسيلة الوحيدة القادرة على دفع البشر لمواصلة الحياة.

المطرُ جميلٌ فقط لمن يلهون معه طبقاً لشروطهم وعلى طرائقهم،
وهو جميل أيضاً لمن ينصتون إليه من وراء الزجاج السميكة
والنوافذ المحكمة الغلق وهم يتدللون تحت البطانيات الناعمة
الوثيرة التي تضخُ الدفء سريعاً في الأوصال الآدمية.

عندما تنام ليلةً واحدةً في العراء وتبكي أعينُ السماء على حالتك
المزرية لن تسقط في عشق المطر أبداً، سوف تعرفُ أنَّ الأشياءَ
الجميلةَ يُمكنُها أنْ تقتُلَكَ!

كان البرقُ يلثمُ جبهة الأرض، يُضيءُ لثانيتين ويختفي، وبينما
يُرسلُ إشارات اطمئنانٍ للمخلوقات المرتعبة في الظلام ويجدون فيه
الونيس والأمل، كان صوتُ الرعدِ يُطبقُ بيديه على رحم فتاة
مسكينة ليُخلِّصَها من آلامها، وكنتُ بمخيلتي هناك أشاهدُ وأسمعُ كل
ما أُتيح لي أن أراه أو أسمعهُ، أنا الراوي لهذه الحكاية وحكَّاء هذه
الرواية، شاهدتُ القتلَ الأول وسمعتُ وسوسة النفس، ركبتُ في
السفينة يومَ طغى الماءُ، شاهدتُ الموت والحياة والحب والكراهية
والياس والأمل والأوهام والحقيقة والفشل والنجاح والنكران والحقد
والغيرة والحسد والظلم والألم وشاهدتُ الخيانة، كانت مثل فتاةٍ
عذراء صغيرةٍ، زرقاء العينين بضرةٍ بيضاء بشعرٍ كسنا بل الذهب،
وكانت رجلاً فتياً كصاري سفينة، عيناه كحيلتان و صدره حقل
قصب، كانت مثل قطعة ذهبية وحيدة تتناقلُ بين الأيدي في الخفاء،
وتضيءُ لوهج النار فتخدع العيون ببريقها.

كنت هناك أبحث عن العملة المهملة التي لا يتعامل بها بنو الإنسان.

بحثتُ في الشوارع الواسعة والضيقة والمعتمة والمضيئة، في البحار والجبال والأكواخ والكهوف، في القصور والقبور، بحثتُ في غياهب الصدور.

لقد حطت على يدي كفراشة بيضاء منيرة لبرهة خاطفة من عمر هذه الحياة ومثل ملكة نحل ذهبية بجناحين مضيئين، وضعت فمها على أذني، وأسرَّت لي آلاف الحكايات والأسرار.

ثم قالت: احك لهم .

قلتُ: أحكي كل شيء؟

قالت: دعهم ينظرون إلى الداخل.

قلت: وأنا أيضا ؟

قالت: لا معرفة بلا تجربة.

البخارُ يتصاعدُ من إناء فوق شعلة من بوتاجاز صغير، شيماء نائمة على ظهرها وسط سرير وحيد يشغل حيزاً كبيراً من مساحة الغرفة الضيقة، الوقت المتأخر والمطر كانا حائلين لأي أمل في وصول الإسعاف، انقطعت الكهرباء وفي غضون ساعتين كانت كل الطرق الجانبية والفرعية غارقة بماء المطر.

الرياح الشديدة أسقطت أعمدة الإنارة المتهالكة، واقتلعت بعض الأشجار القديمة رغم رسوخها في الأرض منذ سنين.

رغم ترقبها لموعد الولادة وقعت المفاجأة.

صديقتها نورا تمد يديها لتتمكن من رأس الطفلة، رحم أمها يدفعها بقوة لتتنفس الهواء العطن، كان طَلُقُ الميلاد قوياً وصرخات شيماء أسكتتها صرخة جديدة لمولودتها التي رحبت بها الحياة للتو، قطعت نورا الحبل السري بالمقص، ولَفَّتْ الطفلة في منشفة نظيفة ووضعتها على صدر أمها وهي تبارك صديقتها قائلة: مبارك لك يا شيماء، فتاة باهية الحسن، ما شاء الله، حفظها الله، هل اخترت اسماً؟

- سميحة. سأسميها سميحة.

- مباركة أنت وسميحة.

تسكن نورا الممرضة العزباء ابنة الثلاثين مع أمها التي لا تنهض من فراشها، بسبب داء الفيل في الشقة المقابلة لشقة شيماء، كل واحدة منهما معها نسخة من مفتاح شقة صديقتها، ربما أصابها شر، أو وقع لها حادث، أو ماتت، فالناس يموتون في المدن القاسية في صمت ووحدة ولا يعرف بخبرهم أحد إلا بعد أن تفوح الروائح.

نُورا لا تلفت انتباه الرجال، قصيرة وعريضة وسمراء ومستطيلة التكوين، جادة وصِدَامِيَّة وسريعة الخطى وعصبية وطويلة اللسان ولم يكن يتحرشُ بها أحدٌ، أو يشتمها أحدٌ، كانت تخافُ الرجال وتتجنَّبهم، وتتعاملُ معهم خلال نوبتها في المستشفى بغلظة وجفاء وعباراتٍ قصيرة.

لم تكن تُحبُّ الرجال، لأنَّها ظلت طوال حياتها تتمنى أن يُحبَّها رجلٌ أو يحتك بها غدراً في غفلةٍ منها، أو يُحاول إسقاطها في شبابه الواهنة، كانت في أعماقها ستحاول أن تُقاوم بالدرجة المناسبة ليكتمل الأمر، وتسمح لنفسها بتصديق أكاذيب لذينة يحيكها شابٌ تافهٌ ببراعةٍ من أجل علاقةٍ قصيرةٍ فاشلةٍ، قبل أن تبدأ، علاقة لن تُثمر ولن تُغير من واقع حياتها الأليمة شيئاً، لكنها كانت تحلم وتتمنى كأي فتاة أن تتشارك ذلك مع رجلٍ ما، رجلٍ واحدٍ فقط، ليومٍ واحدٍ، رجل جميل في عينيها يُزلزل قلبها عبر نظرةٍ واحدةٍ أو ابتسامةٍ خاطفةٍ، لكنَّ حظها التعيس لم يمنحها إلا بعض الرجال المستهترين الذين ينضحون بالفضاظة وانعدام الذوق، ولم تستطع في

أصعب لحظات أرقها وعنائها أن تتقبل هذه المخلوقات البائسة القبيحة في حياتها.

فرحة شيماء كانت ناقصة. سميحة وُلدت للتو و لن تفتتح عالمها بضمة من صدر أبيها، لن تسمع كلمات الترحيب والفرحة والقبلات، والحضن الأبوي الأول الذي يمنح كل فتاة تجيء لهذا العالم شعوراً أبدياً بالأمان.

كانت أم شيماء تساعد نورا بمشاعر مختلطة بين الرهبة والفرحة والقلق، لم يكن قلبها يحترق على ابنتها الوحيدة على ولدين، لا تعرف عنهما شيئاً، يخرجان من السجن ثم يعودان إليه في أسرع وقت، في قضايا النشل وسرقة الملابس من الشرفات الأرضية، وأحياناً الدجاج والبط.

أم شيماء امرأة مستهترة منحرفة، تعشق أن يهواها الرجال ويسقطون في غرامها والفوائد التي تحققها من هذه العلاقات المحرمة تبدأ بالمتعة وتنتهي بجنيهاً، بمجرد وقوع عينيها في عيني أي رجل تستشرف فيهما رغبته وقدرته على الانزلاق معها لقعر البئر، ترمي له ابتسامة أو كلمة وفي لحظات يتعلق الخيطُ في المخيط.

عندما صرخت الطفلة صرخة الحياة، لم تتمالك أم شيماء نفسها وزغردت بكل قوتها، كان زوجها يجلس واضعاً رأسه بين كفيه، يسيطر الغم على كيانه وتتعارك في رأسه أفكار دموية لا يمكنه

تنفيذها ،كان رجلا ضعيفا نحيلاً قصيراً لا حول له ولا قوة، ومن أجل هذه المزاي ا رضيت به لمياء وتزوجته كي لا يكون عائقاً بعد زواجهما أمام رغباتها ومجونها.

في البداية اعترض على خروجها بكامل زينتها وعطرها وفستانها الضيق، وانتهي به الأمر لمعرفته بأسماء عاشقها دون أن يستطيع فعل أي شيء، وإذا اشتعلت في قلبه نيران الرجولة لدقائق، أخبرته أن من الأفضل أن يفترقا بهدوء وكان يخسر دائماً.

شيماء ابنة السابعة عشرة، ابنة لمياء المدللة، غرر بها عزيز، وعدها بالزواج بعدما أوقعها في غرامه، فتنها بجاذبيته وجمال ملامحه وتكوينه الرياضي الممشوق الطويل كنجوم السينما الأمريكان، شاب وسيم بهي الطلة أبيض البشرة، أزرق العينين في العشرين من عمره، متسرب من التعليم الابتدائي والولد الثالث لأب قاس ليس في قلبه ذرة من رحمة أو حنان أو عطف، يتعامل باليدين والساقين فقط حتى مع الكلاب والقطط والبشر أيضاً وخصوصاً مع أم عزيز .

قبل أن يبلغ عزيز العشرين من عمره أصبح مسجل خطر ولم يدخل بيت أبيه منذ سنوات ولا أحد يعرف أين يبيت خاصة في الشتاء القارص حيث شهور كياك وطوبة وأمشير قادرة على قتل أي كائن حي في عراء هذه المدينة الساحلية، لكن لم تستطع قتل عزيز.

يعيش على سرقة أي شيء، علامات السيارات المعدنية، الأحذية الغالية من المساجد، يلتهم أي أقراص بيضاء أو حمراء إذا وجد بها شبهة ضعيفة أنها مخدرة، فحبوب الترامادول والتامول أكثر أهمية من الماء والطعام، من السجائر والحشيش والبانجو، حياة أي شخص في العالم لا تساوي حبة ترامادول واحدة، في عقلية عزيز.

كان من اليسير عليه إنهاء حياة إنسان من أجل قرص أحمر صغير بحجم حبة ترمس، كان قلبه ميتا لا يخاف أحدا، لا يخاف العقاب وحبل المشنقة وجدران السجن، لا يخشى رجال الشرطة، فربما يرتعد ضابط وهو يحقق مع عزيز في اشتباهه، وعندما ينظر إلى سجائر الضابط لا يتردد في إشعال واحدة له وهو مقيد بالحديد، كان يمكنه إرعاب الناس حتى وهو جثة هامدة.

يتتبع أي شخص غريب يسير بمفرده ليلا، يقوم بتقييم قوة الفريسة إذا كان يبدو من مشيته وبنائه الجسدي قويا يتجاهله عزيز، ليس خوفاً منه ولكن لعدم إضاعة الليلة في معركة بدون طائل، أما إذا وجدته ضعيفاً مرتجفاً يمشي بسرعة وينهب الأرض بقدميه خوفاً من الليل في شارع خاو من الناس يتتبعه، يضعه في اختبار سريع ينادي عليه

: كابتن لو سمحت!

عندما يتوقف يقترب منه بحجة طلب ولاعة لإشعال السجارة وإذا فاجأه تعيس الحظ بأنه لا يدخن سأله عن عنوان ما، سنترال، مقهى،

مستشفى، ثم يرفع يده في الهواء كأنه سيشير لاتجاه ما، ليرى رد فعل الضحية فإذا أفرغته الحركة المفاجئة ليد عزيز وانتفض وقفز قلبه في صدره من الخوف تشجع ووضع يده على كتفه وضمه إليه وأخبره أنه في أزمة مالية ويحتاج مساعدة وكل ضحية لها ظروفها الخاصة فمنهم من يخرج محفظته فيسلبه عزيز ما معه من نقود، محافظاً بكل أدب على المحفظة والبطاقة الشخصية، ربما وجد خطاباً غرامياً أو صورة، يبحث عن النقود والحبوب المخدرة فقط في كل محفظة، ويعيدها لصاحبها بوضعها في جيبه، وإذا بكى الشاب وأخبره أنه يسكن بعيداً وليس معه أجر الباص أعطاه عزيز الأجرة، كان ذكياً وسريع البديهة ككل التلاميذ المتفوقين في المدارس لكنه شرير منذ لحظة خروجه للحياة، ربما لو أننا أعدناه لبطن أمه ووُلد في حديقة يحفها الشجر وتغرد فيها العصافير وربناه في قصر ملك أو معبد أو محراب من نور سيكون عزيز المسجل خطر الذي أحكي لكم عنه الآن، في أغلب الحالات، وربما بدأ حياته بالإجرام والعنف وانتهت نهاية عظيمة كأى إنسان عظيم قادر على التضحية والإخلاص والوفاء، يبدو حكماً متطرفاً وقاسياً، أن نعتقد أن المجرمين يولدون هكذا مهينين فطرياً للقتل والتخريب والعدوان، وأنهم جبابرة بالفطرة، كأن الإجرام موهبة.

ومثلما يمنحنا الله الموسيقى والرسم والشعر والكتابة، هناك مخلوق عظيم آخر يمنح أتباعه مواهب خطيرة جداً تسعى بكل قوة عبر الأزمان لتدمير المواهب النقية.

عزيز كان يسلب ضحاياه أي شيء نافع، هاتفه أو حذاءه أو الجاكت الجلد أو الكاب وإذا كان الضحية شاباً شجاعاً وادعى البسالة للحظات قصيرة، فعندما يلمع سلاح المطواة في الضوء الخافت تختفي الشجاعة ويقوم بتسليم ممتلكاته لعزيز بيد مرتعشة أما إذا صادف عزيز ذنباً مثله وناداه كابتن فإن الذئب الآخر يتقدم باتجاهه حتى يضع أنفه أمام أنفه في تحد دموي مميت .

قائلاً: أي خدمة؟

عندها يتراجع عزيز معتذراً أنه أخطأ في العنوان وأنه اشتبه عليه الأمر وظنه أحد أصدقائه وينفض الاشتباك بهدوء وأحياناً ينتهي بمعركة استعراضية بالمطاوي والإصابات الاحترافية عالية الدقة، عندما يتهاوى سلاح المطواة على فروة الرأس فتظن أنها ستنتشق نصفين لكن يكون الجرح خدشاً سطحياً، يسيل منه الدم ويلقي الرعب في قلب المصاب إذا كان جباناً بالفطرة فيترك ساحة المعركة ركضاً كهروب فأر من قط قطع الطريق عليه إلى جحره بدون قصد.

وحدهم الجبناء الذين ركضوا بأقصى سرعة عند النداء المرعب " كابتن " هم من سلموا من فخ عزيز.

كان يرتدي "كاب" في ليالي صيد الضحايا فهو يمنع الأشخاص في الشرفات من تبين ملامحه ويشئت ذهن ضحيته في الاحتفاظ بصورة واضحة له، زيه المفضل بنطلون أسود وقميص أسود

وجاكت أسود وحذاء أسود، كان يمكنه الوقوف في زاوية معتمة من أي شارع ولا تستطيع أن تراه من مسافة ثلاثة أمتار، يمكنك فقط رؤية وهج النار في السجارة المشتعلة لأنها تضيء بقوة عند سحب الأنفاس منها في حلقة الظلمة.

وتقول الحكايات القديمة أن أحد القتلة هواة قتل البشر بدون سابق معرفة، كان يخرج في الليل إلى المزارع والأراضي المفتوحة، وإذا حمل القدر إليه رجلاً يستأنس في الظلام بسيجارته، تبدو جمرة التبغ المضيفة نقطة جاذبية هائلة للقاتل الكامن فوق شجرة جوافة أو كومة تبن أو تعريشة بهائم، يصوب بندقيته وينتظر لحظة سحب الأنفاس، عندما تطبق الشفتان على فلتر السجارة ويتدفق الدخان إلى الرئتين، يضغط ابن الليل على الزناد وتسقط الضحية، وفي اليوم التالي يعرف من أصابه الطلق الناري بالأمس وخرجت جنازته اليوم، وتخرج القرية كلها للبحث عن القاتل الذي يقتل الناس على ضوء جمرة التبغ، ولم يعثروا عليه أبداً لكنهم صاروا لا يدخلون في الليل في الأماكن المظلمة.

لم يسرق أحداً بالإكراه في أي منطقة قريبة يمكن أن يلتقي فيها بأحد يعرفه، كان يختار مناطق أبعد ويغير المواعيد والحارات والشوارع كي لا يلتقي بأحد ضحاياه السابقين، كان يستخدم ذكاءه ببراعة في الأذى والسرقة ونهش لحوم الضعفاء.

رغم حرصه وقع هو نفسه فريسة لذئاب آخرين يعملون بشكل فريق أوقعه حظه السيء في منطقتهم، كانوا ملثمين لكي لا يعرفهم أحد لكنه أدرك أنهم جنباء تافهون، كانوا يصنعون الفخاخ مثله تماماً.

كان بارعاً وماهرأً ودائماً جيوبه عامرة بالغنائم، عندما أحاطوا به كان أسداً بين الذئاب ووقعت معركة دامية، فتح المطواة قرن الغزال، احتذى بظهره إلى سور مدرسة، كلما حاول أحدهم الاقتراب منه أصابه برشاقة في يده، كانوا أربعة وهو بمفرده، جرحهم جميعاً، هربوا من أمامه مذعورين كالكلاب، كانوا جنباء يحملون المطاوي في جيوبهم ويشهرونها بأيديهم للاستعراض والتباهي لكنهم كانوا يرتعدون خوفاً، انسحب مرفوع الرأس يملأ الغرور رثتيه، لكنهم بعد عدة أيام لما شفيت جراحهم وأوشكت على الالتئام، ترقبوه وعرفوا خط سيره عن طريق وشاية من شاب من منطقته ترك له عزيز إصابة في وجهه منذ سنوات، أعدوا له كميناً محكماً في شارع جانبي وانهالوا عليه بالمطاوي والسلاسل وتركوه كدجاجة ذبيحة، مليء بالإصابات الكثيرة السطحية لكن أغلبها كان في أماكن مهينة.

تجربته الأولى اكتسبها في حفل ذئاب جماعي، بسرعة انتشرت الأخبار أن (عبير خرايش) بصحبة شابين شقيين، في طريقهم إلى زريبة المواشي البعيدة عن العمران على ضفاف النهر، من كل حارة ومن كل حي توجه كل ذئب قادر على خوض معركة ولديه

مطواة، خلال ساعة واحدة كان طابور العاشقين طويلاً، كلما
اتسخت الفتاة حملوها ووضعوها في حوض الماء الإسمنتي الذي
تشرب منه الجواميس، غسلوها على عجل، وأعادوها إلى كومة
القش، لاستقبال باقي أفراد الطابور الذي يمتد حتى مطلع الشمس.

ذات ليلة احتفالية كهذه طاردتهم الفتاة عارية وفي يدها مطواة قرن
غزال، كادت تموت من الجوع والإعياء، ففروا أمامها كالخراف.
وهي تصرخ فيهم : أنا جائعة.

كانت الفتيات المشرذات الهاربات يعشن حياة عبير، ومن أجل
وجبة طعام وعلبة سجائر وزجاجة براندي ومأوى، تقع فريسة
لشقي واحد أو اثنين، ثم يقع الجميع فريسة لكنيية من الأشقياء،
عندما تكتشف الذئاب مكانهم.

٣

أيام الحمل الأولى توصلت شيماء لعزيز ليتزوجها، قبلت يديه
وركعت أمامه، لكنه كان حقيراً مستهتراً قاسياً بلا مشاعر وليس
لديه ذرة وفاء لأحد، كان جباراً في حقيقة معدنه، لا يخاف شيئاً ولا
عقاباً، كأن تحت ضلوعه حجر.

فشلت في إنزال الجنين رغم مساعدة نورا، أخذت أدوية عبر الحقن لكن لم تجرؤ على إجراء عملية، فهي لا تملك تكاليفها وطلب منها الطبيب أن يعاشرها أولاً وعليها أن تدفع الأجر للعملية مقدماً، كانت تنهكم بسخرية مريرة قائلة: الذئب يريد المتعة والمال أيضاً دون أن يدفع أي ثمن! كلهم ذئاب دائماً والمعطف الأسود لا يختلف كثيراً عن المعطف الأبيض!

جاءت مع أسرتها من قرينتهم وسكنوا في هذه الشقة هرباً من كلام الناس في سيرة أمها.

أبوها رجل ضعيف ليس له حول ولا قوة ولا سلطان، والأمر الذي أجبره على مغادرة القرية مع أسرته، أنه وقف في منتصف القرية صارخاً: اتركونا في حالنا، لا تخبروني بشيء، وفروا وشايتكم، أنا أعرف أنها عشيقة لكم جميعاً!

كانت مفاجأة مذهلة، ففي القرية رجال مهمون ووجهاء، وهذا المعتوه اتهم الجميع بالوقوع في حجر امرأته الفاتنة، وكان لابد من إخراجه من بينهم، لأن الشكوك بدأت تنتقل من قلب إلى قلب، ومن فم إلى فم، وكانت العبارة الشيطانية التي تتجول في شوارع القرية: من الذي نجا من لمياء؟

شيماء أسلمت نفسها لعزیز في غرفة نومها، رغم وجود أبيها وأمها على بعد أمتار منها في الغرفة الثانية، الشقة في الطابق الأرضي،

في عمارة من خمسة طوابق، انتقلوا إليها من القرية بعد ذبوع الخبر.

عزيز كان يزعه ضوء عامود كهرباء يهتك ستر المكان، قرر التخلص من المصباح، صوب حجراً صغيراً باتجاه اللبة المتوهجة فوق عامود الإنارة، كانت أحجاراً صغيرة جمع بعضها وبدأ التصويب فشل فكرر المحاولة، فشل وفشل و فشل، وأوشكت الأحجار أن تنفذ ومع الحجر قبل الأخير تحطم المصباح وأظلم المكان، فرد ظهره ورفع ياقة قميصه وشمخ أمام ذاته كأنه صنع إنجازا وساهم في نشر الظلام على الأرض.

وكان كلما قام الأهالي بتركيب مصباح جديد حطمه عزيز، لكن الناس لم يتوقفوا عن تركيب المصابيح المضيئة وعزيز أيضا لم يتوقف عن تحطيمها.

كان يقفز إلى البلكونة الأرضية، كانت تترك البابين مغلقين بدون مزاليج، الباب الزجاج والباب الشيش، يفتح بهدوء، ويستمتعان، كانت صغيرة وعذراء وساذجة، أدمنت الملاطفة والغرام.

تختبئ وراء الستارة في الشرفة، تشاهد القطط في موسم التزاوج، قادها حظها التعيس لحادثة كلفتها ثمناً باهظاً.

ففي ليلة هادئة مقمرة بعد منتصف الليل أقلق نومها أصوات كلاب تتعارك، كانت المعركة أمام شرفتها مباشرة، قامت فزعة من

نومها، وارتبت الباب برفق وتطلعت بعينيها من بين الدرفتين لترى ماذا يحدث، كانت المعركة على أنثى، رأت الذكر والأنثى، ظلت المشاهد عالقة في ذهنها وهكذا سقطت بين أنياب عزيز، توهمت أنه رجل حقيقي وسيفي بوعدده ويتزوجها.

رغم توسلاتها المتكررة له واستهتاره بكلامها لم تياس حتى فقدت الأمل فيه تماماً، ليلة الحادث.

٤

عزيز وتامر يجلسان على رصيف مخزن السلع التموينية أمام العمارة التي تسكنها شيماء، يبتلعان أنواعاً رديئة من الحبوب المخدرة، يفتحان أكياس الفوار الكاتافاست ويجعلانها أسطرا ويشمانها.

طلب من تامر ورقة "بافرة" للفسجارة حشيش، عندما أخرج الدفتر من جيبه سقط شريط حبوب ترامادول على الأرض لكنه التقطه بسرعة، قال له: أعطني نصف هذا الشريط.

لكنه رفض وتعلل أنه أمانة وستذهب لصاحبها وأقسم له أنه لا يملكه حتى أنه كامل ولم يبتلع منه أي حبات.

قال له: احلف أنك لم تأكل منه شيئاً.

فحلف .

فقال له عزيز: لا أصدقك، دعني أراه. أخرجه تامر من جيبه بحرص واحتراز، حاول عزيز سلب الشريط من يد صديقه لكنه استمات عليه، تعاركا وتدافعا ثم اشتبكا وتلاحما وسقطا على الأرض.

شيماء تشاهد كل شيء، قلبها يخفق بسرعة، قدماها ترتعشان، تفرك أصابعها وتشب برقبته، توشك أن تصرخ، لكنها لم تجرؤ.

عزيز كان شجاعاً وقادراً على إنفاذ جرمه، فتح مطواته، بدون مشاعر طعن صديقه في ثديه الأيسر.

صرخت شيماء، خرت مغشياً عليها، تعالت صرخات نساء في الشرفات المطلة على ساحة الحادثة، هرب عزيز وتركه ينزف.

الذين شاهدوا الواقعة من شرفات شققهم السكنية، طلبوا الإسعاف فلم يجروا على المجيء، ولم يجروا أي شخص على الخروج من شقته والنزول لإنقاذ تامر، الطعنة لم تكن في القلب، لكنه ظل ينزف والناس يتفرجون وهو يزحف على الأرض أمام العمارة حتى سكنت حركاته، انقلب على ظهره ووجهه للسماء وعيناه شاخصتان مليئتان بالدهشة الكاملة.

الإسعاف جاء لنقل الجثة، طلبته الشرطة التي جاءت بعد ساعة تقريباً، ذاع الخبر أن عزيز قتل تامر بسبب شريط حبوب.

أحد المواطنين أبلغ الشرطة عن مكانه، بعد أن ظهرت صورته في نشرة الأخبار بالقناة السادسة، ألقوا القبض عليه بعد أن اشترى دجاجة مشوية وبطاطس وسلطة وطحينة، لم يمهله القدر الفرصة لالتهامهم.

لم يشاهد صورته في التلفزيون، فهو لا يشاهد إلا كرتون القط والفأر، لم تنبهه حاسته السادسة المعطلة أن الزبون الذي لم يرفع وجهه عن الأرض ويرتشف الشاي بصوت مرتفع، كان ينتظر مجيء عزيز و صعوده إلى المنزل لإبلاغ الشرطة بمكانه والحصول على مكافأة البلاغ. كان مبلغاً حقيراً لكنه لم يكن أحقر من جريمة الوشاية ذاتها.

ألقت الشرطة القبض عليه و على صديقه القهوجي الذي سمح له بالبقاء معه في مسكنه في غرفة فوق السطح.

عليه أن يقضي في السجن أشغلاً شاقة ستطول لعشرين عاماً قادمة. سكان المنطقة يعرفون أنه والد سميحة وتشجعت شيماء وكتبتها في شهادة الميلاد سميحة عزيز السلاب.

بعد ستة أشهر زارته في السجن ورأى ابنته لأول مرة.

شعر بسعادة عظيمة وتمنى لو عاد به الزمن ولا يقتل صاحبه ليقوم بحماية سميحة التي ليس لها سند في الحياة.

كان يعرف أنها ابنته ولم يتشكك أبداً في حبيبته فقد كان يؤمن أنها تحبه ولن تخونه ولا يوجد أي شخص يجروء على الاقتراب منها وهو موجود، فهو ابن ليل وسلاح ومزاج ودم.

عندما احتضن طفلته وقبلها ماتت في قلبه الكراهية ونبتت بدلاً منها المحبة، كانت تتفلق كورقة خضراء تتشق عن حبة قمح، في عشر دقائق فقط جرت دماء جديدة في قلب الذئب، أحس برحمة تغشاه وأمل كبير في الصفح والغفران، وأن الحياة برفقة طفلة جميلة تختلف عن حياته المعقدة المجرمة.

أدرك أن قبلة واحدة على وجنة طفلته الرضيعة حولته إلى إنسان آخر ولعدة دقائق نسى أنه مسجون وأن عقوبته طويلة وأنه لن يكون موجوداً بجوارها لرعايتها وحمايتها وتوفير كل احتياجاتها.

أحس بندم كبير يهز كيانه وتمنى في الوقت الفائت أن يتغير هذا المصير وألا يترك ابنته من بين يديه.

نادى العسكري بصوت خشن: الزيارة انتهت.

أحس أنه يقاد إلى الموت وليس إلى عنبر المساجين، تمنى في قلبه أن تمنحه الحياة فرصة أخرى للحياة بجوار ابنته وزوجته وتوفير وسائل السعادة لهما.

شيماء أخذت سميحة وغادرت وعاد هو إلى دنيا القيود والمذلة.

عاد كشخص جديد، كإنسان مختلف، تغيرت تصرفاته وسلوكياته.
مع كل زيارة تقوم بها شيماء كانت تتركه أكثر حياً للحياة وفهماً
ومرونة.

أصبح لطيفاً وكريماً ومتعاوناً، توقف عن الصدام والعنف إلا في
حالات قليلة عندما تُفرضُ عليه معركة.. وعرف الركوع والسجود
والدعاء.



شيماء تأكل من عملها مع أمها في تنظيف البيوت وغسل الملابس
ومسح الشقق والسلام، قضت ليالي سوداء كثيرة، نهش لحمها
وعرضها رجال قساة بلا مشاعر ولا شفقة ولا رحمة.

نشأت الطفلة في بيئة قذرة، أمها تصحبها معها في كل مكان، تظن
أنها لا تعي ما تراه وتسمعه، لكنها أخطأت، الطفلة رأت قذارة
الرجال وسمعت أمها المسكينة، شاهدت القسوة والحقارة تفيض من
ذئاب لا يرحمون ضعيفاً.

بلغت الفتاة واستدارت في صدرها برتقالتان، بدأت تلفت أنظار
الصبية والشباب في ذهابها للمدرسة ومجيئها، الخوف يملأ قلب

أمها تريد مستقبلاً مختلفاً لابنتها الوحيدة، منذ بلوغ الفتاة السابعة توقفت عن السماح لأي رجل بالاقتراب منها.

تحلم أن تكون ابنتها طبيبة أو مهندسة كما يحلم كل البسطاء لأبنائهم قبل أن يفيقوا على الحقيقة السوداء أن الحاكم الأعظم للحياة هو المال وأن الفقر هو السافل الأكبر الذي يزيّف حقيقة الأشياء.

كانت تغلق الغرفة عليها من الخارج إذا ذهبت إلى أي مكان، باب الشرفة الوحيد تغلقه بعارضة حديدية وقفل، لم تكن تعتقد أن أمها وأباها سيحفظان سميحة لأنهما لم يحفظا شيماء نفسها. اكتسبت خبرات، غيرت نشاطها إلى بيع الملابس والقمصان والأقمشة والعطور وكل ما يخص النساء، من بيت إلى بيت، من شقة إلى شقة بدأت تجارتها الصغيرة.

الفتاة فارعة ملفوفة القوام، جميلة الخلقة، بيضاء بحمرة الورد، بضّة وشقراء وزرقاء العينين كجمال أبيها عزيز، تثير لعاب كل الرجال والشباب في المنطقة، الكل يعتبرها لقمة سائغة سهلة بلا سند.

أمها تشعر في أعماقها بشر عظيم سيقع في وقت ما، تعلم أنها مخطئة. في البدايات شعرت أنها تتعرض للاغتصاب لكنها احترفت التلاعب بقلوب الرجال وأعصابهم، وإراحتهم.

حاولت أن تحمي ابنتها من الحياة والرجال، لم تتركها تقترب من أي صبي في العمارة أو الشارع، صنعت حولها حصاراً قوياً.

الفتاة تزداد جمالا وأنوثة، لم تكد تبلغ العاشرة حتى جاء أول عريس، رفضت أمها الفكرة، ما تزال ابنتها طفلة صغيرة في المدرسة ، قصتها ليست سرا وأكذوبة الخطوبة مجرد طريقة معوجة لالتهام الفتاة الصغيرة.

كانت تعرف أنه لن يتجرأ أي شاب على الارتباط بابنتها بسبب سمعتها الملطخة وسيرة عزيز القاتل السجين.

تعرف أن الناس بارعون في التمثيل والكذب والخداع، لكنها تعلمت أن تكتشف ذلك ببساطة من تصرفاتهم، رغم فطنتها وخبرتها في الشر والانحطاط وسلطان الشهوة على النساء والرجال لم تكن تعلم أن ابنتها لديها كتائب من المعجبين، الفتاة التي تراها طفلة وتحيطها بالخوف والقلق من الحياة، تחדش هي حياة الحياة كل يوم وتُسقط الوقار والحشمة عن رجال كبار، كأنها تحكم هذا العالم وتتحكم في مزاجه وتطرفه وعبثيته التي تحير الأفهام.

كانت صغيرة في عمرها فقط لكنها لم تكن صغيرة في وعيها المبكر بجمالها وأنوثتها وركوع الرجال أمام جبروت بياضها وتفاصيلها، وكلما عرف أحدهم عمرها انبهروا وأصابه الدهول، لا يوجد مكان مرت عليه سميحة ولم يذكر الناس العبارة الشهيرة (البنات ضربتها فائرة).

في ليلة باردة خيم الهدوء على كل شيء، ندرت حركة الناس في الشارع، عم السكون المنطقة كلها، كأن البشر اتفقوا على النوم في توقيت واحد.

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف، سمعت شيماء طرقت خافتاً على باب الشرفة كنقر، انتفضت من فراشها الدافئ مرتعبة، أبوها وأمها ذهبا منذ العصر للتعزية في عمها في القرية بشربين ولن يعودا إلا في الغد.

سألت نفسها من الذي يراقبها واغتتم فرصة أنها وحيدة ولماذا جاء من البلكونة ولم يأت من الباب؟!

أمسكت السكين، استجمعت شجاعته، وقفت وراء الباب، قالت بصوت يرتجف: من أنت؟ من في الشرفة؟

- عزيز. أنا عزيز.

ظلت مذهولة لا تنطق لدقيقة، لا تعرف ماذا تفعل، زياراتها له انقطعت منذ شهور وانشغلت بأعباء الحياة وتجارته الصغيرة وابنتها البالغة، كرر الطرق قائلاً: افتحي يا شيماء.

فتحت له. عانقها وقبلها، لم تبادله أي نوع من المشاعر، كانت مستسلمة كمغتصبة.

: وحشتيني أوي.. وضعت يدها على فمه وأشارت ألا يتكلم كي لا يوقظ الفتاة، أبعد يدها، دخل، جلس على السرير، وضع يده على شعر البنت: ما شاء الله صارت عروساً، ذلك أذنها وداعبها.

استيقظت الفتاة، دعت عينيها ثم جلست منذهلة، نظر في عينيها ونظرت في عينية قالت: بابا واعتنقته بقوة، وهو يعتصرها ويقبلها.

انخلع قلب شيماء وخشيت أن عزيز نسي أن سميحة ابنته، طار خيالها كغراب أسود إلى مشهد مريع، ارتعدت كأن قطعة ثلج سقطت في ظهرها، قالت في نفسها: أعوذ بالله من الشيطان.

غيرت مجرى الحديث، سألته

- كيف خرجت من السجن ؟

- حسن سير وسلوك.

- الحمد لله على السلامة.

- الله يسلمك يا أم سميحة .

أشار إلى حقيبة بلاستيك تركها بجوار الباب، قال لها: لديك فراخ مشوية وطحينة وسلطات وخبز جهزي لنا العشاء.

- أفيقي يا سميحة لكي تأكلي معنا.

- لست جائعة يا أبي.

- لأجل خاطر بابا، لم نأكل معاً من قبل.

تعانقا، أعدت الأم العشاء فوق صينية كبيرة، جلسوا على الأرض
ثم سألته

- من أين أتيت بالنقود لشراء العشاء ؟

- زرت صديقاً كان معي وخرج قبلي بفترة، نظر إليها بعينين
عائبتين، نخسها ببصره ناحية سميحة ليلفت انتباهها لوجود الفتاة
،أوسع عينيه لها بنظرة حادة فارتجفت من نظرة عين، ووضعت
وجهها في الطعام.

الذئب في محبسه ربما يكون لطيفاً، ينتظر الطعام في صبر، يتقبل
النظام وربما الإهانة، لكن عندما يخرج إلى البرية، ويتنفس الهواء
الحر، ويسترد عافيته وكبرياءه، لا أحد يستطيع توقع متى سيعوي
أو متى سينقض .

لم تكن شيماء تعرف مشاعرها الحقيقية بظهور عزيز في حياتها
مرة أخرى.

كانت خائفة ومتوترة لكنها شعرت لأول مرة بإحساس جديد، لقد
أحست أنها في ظل رجل وعرفت الأمان للمرة الأولى في حياتها.

كانت الفتاة فرحة ومنتشية ومشاعرها متوهجة لوجود أبيها الذي لم
تعش لحظة كهذه معه من قبل وارتمت في حضنه، فقد زارته

عشرات المرات طوال سنوات حبسه، وكانت تسأل أمها: لماذا لم نعد نزور أبي؟ ففتحجج بأنهم نقلوه سجنًا آخر بعيداً.

كان يطعمها بيده ويعانقها ويربت على ظهرها ويتمنى أن تمنحه الحياة الفرصة لتعويضها عن كل لحظة صعبة عاشتها بغير أب.

كانت فرحة وخائفة من تدخل أبيها في حياتها وإفساد حريتها. لم يكن هناك ما تخفيه فالجميع يعرف أصلها جيداً، وكثيراً ما سمعت عبارات قاتلة مثل بنت الحرام، خصوصاً من البنات إذا تعاركت مع إحداهن في المدرسة أو أغوت أحد الأولاد وانتزعت من زميلة لها، تحتفظ به قليلاً وتحصل على هدايا وملابس وشكولاتة ثم تتخلص منه وتنتقل لآخر بذكاء ومهارة وكيد نسائي عظيم، لم تشعر بأي عاطفة حقيقية تجاه أي ولد معها في المدرسة سوى فايز، فكانت تضعف أمامه وتحترمه بداخلها رغم احتقارها الفطري لأي ذكر، كانت طفلة وعواطفها مجرد هباء حقيقي مثل رغاوي عصير ليمون، لكن عندما يمر فايز فوق ظلها على الأرض تصل إلى حالة حرجة جداً، وتشتعل أذناها كجمرتين.

إحساسها لأول مرة بأنها بأمان بوجود أبيها وأن لديها سنداً يحميها من الشباب المستهتر المشاغب المتسكع على الأرصفة ولا يفعل شيئاً سوى التجوال بالدراجات النارية والتحرش بأي فتاة بالكلام والإشارات والأيدي، كان إحساساً بديعاً بالأمان تعيشه لأول مرة، أما إحساسها بالأمان مع فايز فهو أمر مختلف فهو طفل مثلها فقير

وضعيف وبلا أم، ولم تتعرف عليه إلا قريباً لأنه منقول من مدرسة ثانية ولولا أنه دخل معركة صبيانية للدفاع وتلقى بسببها ضرباً قاسياً وخرج بجروح وكدمات وكسر في ذراعه الأيسر، لما لفت انتباهها. سميحة هي الماسة الكبرى ينتظرها أسطول من الدراجات النارية دائماً في الصباح والظهيرة، تلك المعركة الخاسرة لفايز فتحت له في قلبها ثقباً صغيراً، أدخلته منه إلى قلبها، هو أكبر منها بعامين وخجول.

افترش عزيز الأرض ليترك ابنته تستمتع بسريرها وظل يترقب استغراقها في النوم. كان في أشد الاحتياج لحبيبته الأولى أم ابنته. كان رجلاً بما يكفي كي يلجم مشاعره المحتدمة في وجود ابنته التي تقضي ليلتها الأولى في وجود أبيها بجوارها. لم تجرؤ أن تطلب منه شيئا المغادرة كانت تدرك أنه لن ينصرف إلا بعد عناق... حميم. أبوها وأمها في عزاء والظروف مهيأة، ثم منذ متى أقام وزناً لامرأة سيرتها في كل فم ورجل كخيال المائة.

كان يشم رائحتها كذئب، يتقلب على الملاء المفروشة على الأرض أوهمتهما الفتاة أنها غطت في النوم. مد يده إلى زوجته، هبطت إلى جواره على الأرض، سمعت الفتاة في الظلام و رأت بالأذنين .

أنهكته.. لم تترك له أي قدرة ليحلم في حلماً شيطانياً.

كانت تؤمن وهو بقربها أنه يستحضرها في خياله، العضات القاسية التي تركت علامات زرقاء اللون كانت برهاناً أنه في حالة شريرة وشاذة، كأنه يفتش عن شيء آخر.

في اليوم التالي وقف في منتصف الشارع، أخبر الناس أنه تزوج شيماء اليوم، وها هو المأذون. طلب من شيماء التي وقفت تشاهد من الشرفة أن تزغرد فزغردت بكل قوة ونورا تدعمها وسميحة تحتض الاثنتين ولا تستطيع الزغردة بشكل لطيف.

قال أنه خرج من السجن حسن سير وسلوك وأنه يشكر كل من زاره وقدم له معروفاً ووقف بجواره في شدته الطويلة وأنه سيحاسب كل من أساء إليه.

رغم مرور السنوات لم ينس الناس " عزيز " كان خطيراً وجريئاً ودموياً وفي عز شبابه وقوته فلم يتجاوز الخامسة والثلاثين بعد .

تعلم أشياء كثيرة في سنوات سجنه، أصبح طاهياً بارعاً وخبازاً متميزاً، وجد عملاً في مطعم كبير بعد تزكية من صديقه الأستاذ الجامعي الذي قضى معه سنوات طويلة. كان يظن أن المجرمين واللصوص فقط يدخلون السجون، لكنه وجد أطباء وأساتذة ورجال أعمال ودعاة وكل أصناف الرجال الذين آمن في عقله أنهم صفوة البشر.

خرج الأستاذ من السجن قبله بشهر وأعطاه عنوانه وأخبره أن يزوره عندما يخرج بالسلامة، صدق وعده وأعطاه مبلغاً نقدياً وتوسط له على مسؤوليته ليعمل طاهياً في مطعم أخيه، كانت وسامته التي تشبه نجوم السينما توحى للكثيرين أنه من أصول أوروبية وقد فتحت له طرقاً مقفلة كثيرة، تعلم أناقة التعبير وحسن التصرف في السجن والمهارة في التعامل مع رجال الأعمال المسجونين فقد كان يرى زنازين السجن في الأفلام كغرف خمس نجوم لكن لم يصدق ذلك إلا عندما عاشه وراه. بعد ستة أشهر انتقل عزيز وأسرته إلى شقة بالإيجار في مدينة العرائس وتركوا مدينة البو غاز لكي لا يفسد الماضي، مستقبل العروس الآتية، كما توهم عقله على الرغم أن المدينتين متقابلتين على ضفتي نهر واحد، لكن الماضي في مدينة سوق وبحارة وصيادين وعمال شباك صيد وسفن، والحاضر في مدينة سياحية، تنزل النساء البحر بالمايوه خاصة عند مطلع الشمس، قبل احتلال البسطاء للشاطئ والتبول في البحر والتغوط أحيانا. أراد أن ينتقل قريباً من عمله في المطعم. كانت الأسرة بحاجة لجيران جدد لا يعرفون أصلهم ولا أحداث حياتهم، ووسامة عزيز وجمال سميحة سيعطي سكان المنطقة الجديدة انطباعاً أنها أسرة محترمة بنت أصل، فالناس دائماً ينخدعون في الوسامة والجمال والأناقة ودائماً يصابون بالفجيعة عندما يكتشفون أن: (الجمال خطاب توصية قصير الأجل).

ضحكت الحياة لأول مرة رغم حرص شيماء على عدم الحمل مرة أخرى واستخدمت أحدث وسائل منع الحمل دون علم عزيز.

سألها عن ذلك، أخبرته أن السنوات الطويلة في السجن وأن بقاءها وحيدة بدون رجل ربما يكون تسبب في تعطل رحمها عن الحمل. كانت أخبارها تصل إليه في السجن، لكن لم يحدث أن ضبطها أحد متلبسة بالفعل الفاحش، ولمّا ألمح إليها بكلمات جارحة، بكت وارتمت في حضنه وقالت: الناس لا ترحم أحداً، لم يلمسني أحد غيرك طوال حياتي، لا يوجد رجل في العالم يملأ عيني سواك.

لكنه كان يعرف جسدها عندما كانت فتاة.....

فكر في الضغط عليها وحصارها لتعترف، لم يحتمل أن يكتم الأسئلة الثقيلة في قلبه، وفي لحظة إصرار سألها عما كان يحدث فترة حبسه ؟ حاولت التهرب من الأسئلة واختلقت الأكاذيب، بكت وندبت حظها التعيس وفي النهاية انفجرت في وجهه.

قالت له أنه هو الذي أغواها وأوقع نفسه في طريق الحكومة ودخل السجن وتركها وحيدة تتلقى نظرات الاحتقار والذل كلما ارتفعت بطنها وظهر الحمل أكثر، وأن الجميع نهش لحمها باعتبارها لقمة سائغة ليس لها رجل ليحميها، وأخبرته أنها كانت طوال الوقت مثل

الغزالة التي سقطت بين مجموعة من الذئاب يأكلونها وهي حية دون السماح لها بالموت أولاً والتهامها ميتة.

أخذت الرجولة تعصر قلب عزيز وأقسم أن يحاسب الجميع على إجرامه في حق شيماء ونسى أنه هو المجرم الأول الذي قطع شريانها وجذب عشرات الذئاب إلى رائحة دماها الطازجة.

كان العدد كبيراً أمام عزيز ولن يمكنه أن يقتل كل هؤلاء الرجال دون أن ينكشف أمره ولو دخل السجن مرة أخرى سيسبقه، ظل يفكر ثم استراح قلبه إلى قتل ثلاثة رجال. فهم الرجال الثلاثة الأكثر افتراساً للحم شيماء طوال سنوات سجنه.

كان بدن شيماء يحمل أسراراً خاصة لا تمتلكها كل امرأة، كان جسدها حنوناً ناضحاً بالنعومة واللين والإرواء، كان مذاق عرقها لذيذاً، ورائحته طيبة محبوبة تشرح الصدر ولا ينفر منه الأنف، وكان ريقها عذباً كأنه ماء جوزة هند.

كانت ذكية وموهوبة وتعرف الاحتياج الحقيقي لكل رجل يقترب منها، كانت شجاعة ومجرمة حب بمعنى الكلمة.

فكر عزيز ثم قرر تأجيل الانتقام بعض الوقت لإسعاد شيماء وسميحة وفي يوم أحد أخذهما في نزهة إلى القاهرة، لرؤية الأهرامات وحديقة الحيوان.

ركبوا مركباً في النيل، دخلوا الملاهي، عند اقتراب المساء دخلوا سينما لأول مرة، الأنوار مطفأة، الإضاءة تصدر عن شاشة العرض، كان فيلماً هندياً، في أوج اندماج الجميع مع الأحداث والاستعراضات انتفض على صرخة فزع من ابنته وهي تشتم وتلتفت لتصفع الشاب الذي يجلس خلفها على وجهه قائلة: يا ابن الكلب.

الشاب الذي يجلس وراءها مع مجموعة من أصدقائه المستهترين، عصر صدرها بيديه، احتضنها وقبلها عنوة. هاجم عزيز الشاب وأمسكه من رقبتة وأوشك أن يقتله خنقاً وهو يبرك فوقه والشاب متكوم في مقعده، فجأة تهاوى عزيز على وجهه وسقط بين المقاعد بعدما تلقى طعنة أصابت قلبه من صديق الشاب الذي أراد تخليص صديقه.

دب الهرج والصراخ في القاعة، أضاءت الأنوار وانقطع بث الفيلم، حاول الشبان الفرار، كانت الأبواب محكمة الغلق ولم يسمح لأحد بالمغادرة حتى وصلت الشرطة.

تم القبض على الشباب ونقل الإسعاف الجثة إلى المشرحة وعادت شيماء وسميحة في القطار إلى المدينة بلا عائل ولا سند وهما تحملان للعالم الحقد والكراهية والغضب الذي انفجر صراخاً وبكاء حاراً على ما فعلته الحياة بأسرة هشة، حاولت أن تعرف مذاق البهجة ليوم واحد.

رغم الموت والفجیعة كان نقل الجثة بعد انتهاء التشريح ودفنها في دمیاط مصیبة ضخمة، فعزیز لیس لديه قبر وبلا أهل یبحثون عن جثته التي تصدر روائح مفجعة رغم النعش الخشبي والکیس الأسود الکبیر. تدخل صديق الأسرة الجدید وحصل عزیز علی قبر من مقابر الصدقة وسترته الأرض.



سمیحة تکبر، تفهم أسرار الحیاة، فایز أیضا یکبر لکن لیس بدهاء ووعي سميحة، کان ساذجاً مغفلاً غارقاً في غرامها وكانت تحبه أیضا بكل ذرة في کيانها، تحبه كعشيق وليس كمستقبل، تحبه کلحظة وليس کديمومة، تحبه كحالة وليس انتماء، هو بالنسبة لها الوردة التي تبهج الحیاة في عینيها والنسيم الجمیل الذي ینعش روحها، لکن طموحاتها في الحیاة أكبر من الزواج بشاب رأس ماله الوحید، ذکاؤه وأصله الطیب.

کل يوم یجيء عریس جدید لسمیحة، بديعة التفاصيل، بضة طويلة القامة بیضاء البشرة. شعرها الأصفر تظهر خصلة منه تحت الإیشارب دائماً، عیناها الزرقاوان تلمعان ببريق ساحر یأسر قلوب الرجال. حتی الأساتذة في الكلية كانوا یحلمون بها ویشتهونها سرّاً

ويخفون هذه المشاعر الشيطانية. تجرأ معيد في الجامعة أن يصارحها بحبه وأجابته بضحكة ماجنة وتركته حائراً.

معتز صاحب المطعم أغدق على شيماء وسميحة الأموال والهدايا. سنوات متعاقبة مرت بكل سعادة ومتعة.

وقف بجانبها يوم استلام الجثة ودفنها، تكفل بكل جنيته، صار كبيراً في عين الأم وابنتها، وظفها في المطعم بعد مقتل زوجها، كان يمهد للحلم الكبير، كان يريد سميحة بأي ثمن، أدمن النظر إليها منذ صباها الطفولي، صارت تستحوذ على خياله وهو يتوهم أنه يرببها على يديه عاماً بعد عام حتى أدخلها الجامعة، لم يعد يملك السيطرة على نفسه، كان يسمح لأُمها بإحضارها معها ووفر لها غرفة للمذاكرة أثناء عمل أمها على الكاشير، دفع نفقات الكلية والمراجع والكتب وملابسها ومصروفها، كان في الخامسة والأربعين، يملك مطاعم في عدة محافظات، تزوج مرتين ولديه ستة أولاد وثلاث فتيات. عندما أخبر الأم بسر قلبه عرفت أن هذه فرصة العمر والتعويض الحقيقي من الحياة لها ولابنتها .

كان المهندس معتز رومانسياً، يشتري الشكولاتة الفاخرة لأجل الصبية الحسنة وأفخم الثياب والأحذية والعطور ويقوم بتوصيلها بسيارته إلى الكلية وقام بتعليمها قيادة السيارات واستخرج لها رخصة قيادة، كان يلاطفها ويتقرب منها بجنون ويدخل معها مزاحاً ساخناً ويحكي لها آخر نكتة ويتغدى معهم كثيراً من طهي يد أمها.

لم يفكر في الحصول على الفتاة في الحرام تحت وطأة الإغراءات المالية الكبيرة التي يقدمها لها وأمها، يخاف افتضاح الأمر لو حاول لمسها في السر.

لم يملك الشجاعة ليجرب طرق بابها ليرى هل يمكنه التهام التفاحة بدون تسلق الشجرة التي غرسها ورواها ولم يتذوقها، كانت تريد أن تعطيه بعض العسل الذي لا يؤذي قرص الشمع. أوشكت أن تفعل ذلك. نبهتها أمها أنها ستحصل بالزواج على الكثير من أحلامها وطلبت منها أن تحفظ عرضها ولا ترتكب خطيئة أمها وتصمد في وجه الإغراء الرهيب وهذا ما حدث.

الأم والابنة أصبحتا صديقتين لا تخفيان شيئاً عن بعضهما البعض وكانت البنت تشبه أمها في أشياء كثيرة، في جمالها وسحرها وذكائها، لكن فرصة سميحة أفضل، فهي طالبة جامعية وفتاة مرغوبة من أشخاص مهمين وأثرياء ومن خلال إطار عظيم ومقدس هو الزواج وليس كحظ أمها التعيس الذي جعلها فريسة في مستعمرة من الذئاب.

عندما ذكرت الفتاة موضوع فايز لأمها وحبها له وخوفها على مشاعره وتحطم آماله، قالت لها: أحبيه كما تريد، اشبعي من عسل الغرام كما يتراءى لك! سوف تتزوجين من معتز، هل نسيت السنين الطويلة ونفقاته علينا ووقوفه بجانبنا بعد وفاة أبيك؟ لقد فعل كل ذلك لأجلك أنت فقط، هذا ليس تسديد دين في رقبتنا له، بل هذه

فرصة ذهبية لك، فرصة عمر، من الممكن أن تنبسم لك الحياة بفرصة أفضل وعريس أغنى من معتز وفي ظروف أفضل من وضعه، لكن كيف يمكننا أن نعرف أن الفرصة ستكرر؟ (عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة) ما يميز معتز عن سواه أنه يريدك زوجة ولست بالنسبة إليه حفل عشاء سينتهي بكأس ورزمة نقود. انسي فايز وفقره ومستقبله المجهول وتشبثي بالواقع المشرق.

كانت الفتاة تملك مشاعر حقيقية جياشة ودافئة ومتحيرة تجاه فايز وكانت تتمنى أن يكون هو رجل حياتها ومالكها المسيطر على كيائها، الرجل الذي سيسكنها ويستوطنها حيث ستسمح هي له ببلوغ هذه النقطة من قلبها وعقلها وبدنها وروحها أيضاً، لكن لا مفر من اختيار المال ومعتز والتضحية بفايز اليوم.

عندما ودعت فايز أخبرته وهي تبكي ببراعة أن الديون الضخمة في رقبته لمعتز، تحتم عليها أن تضحي لترتاح روح أبيها في قبره.

كان رومانسياً مرهفاً، عاجزاً عن استيعاب تلاعبها به، بكى معها وأخبرها أنه سيفرح لأجلها من أعماقه.

تزوج معتز سميحة زواجاً شرعياً ونقلهما إلى مدينة نصر بجانب مطاعمه الكبرى وتجارته الرئيسية واتفق معهما أن يظل الأمر سراً.

اشترى لها شقة ثلاث غرف وكتبها باسمها ودفع مائة ألف جنيه مهراً واشترى شبكة بثلاثين ألف جنيه وتكفل بكل تجهيزات العروس حتى ملابس النوم، قامت الأم بإيداع المهر في البنك كوديعة ذات عائد منتظم.

بعد شهر العسل في مارينا استقرت الأم والابنة في الشقة التملك، كان معتز يزور زوجته الجديدة يوم الأحد فقط وفي مكتبه الخاص في المطعم تعلمت كيف ترضيه في سرية تامة وصمت من العاملين الذين تحيروا للحفاوة بالأم وابنتها.

مضت الأعوام، أصبح معتز يذهب للنوم والاسترخاء فقط عند سميحة التي أصبحت معيدة بالجامعة ببركات معتز بك.

رغم عشقه لها لم يعد قادراً على الاقتراب منها، كان يستعين بالحبة الزرقاء والاستاكوزا والمحار والبطارخ دون جدوى وذات يوم أحد نام ولم يستيقظ.

عرف الجميع أنه مات في سرير زوجته، رغم الزواج الموثق السري تم طرد شيماء من المطعم ولم تحصل سميحة على أي شيء إلا مبلغاً كبيراً من المال كان معتز يضيف إليه كل فترة مبلغاً جديداً في دولابها وأخبرها أن هذا المال هو ملكها تتصرف فيه إذا حدث له مكروه، لأنه نقل كل ممتلكاته لأولاده بيعاً وشراء دون علمهم لكي لا يأكل الشباب ميراث الفتيات، كعادة أغلب الرجال.

فتحت الأم محل كوافير حريمي وتميزت في هذا المجال وصار العرسان يتقدمون لطلب يدها ويد الدكتورة ، وفي ليلة سعيدة تزوجت شيماء طباحاً أرمل وقعت في غرامه في مطعم المرحوم معترز وانتقلت للحياة معه بعد تشجيع كبير من دكتورة سميحة لأُمها.

الأم تخشى أن تترك ابنتها بمفردها في شقتها، لكن رغبتها في الحياة واحتياجها لرجل تحبه كان أمراً يستحق المعاناة، د. سميحة أصبحت امرأة أخرى قوية وشرسة، لديها منصب في الجامعة ووجاهة اجتماعية وعلاقات واسعة وسيارة وحساب بنكي.

شيماء تزوجت لأول مرة في حياتها زواجاً كاملاً، فقد بدأت علاقتها بعزيز في الظلام وبعد زواجهما ظلت تشعر في نفسها أنها رخيصة وليست زوجة محترمة يقدرها الناس ويرحبون بها، لم تكن تجرؤ أي امرأة محترمة على إقامة صداقة معها ولا حتى في السر، كان إلقاء تحية المساء أو الصباح عليها جريمة تعاقب عليها أي فتاة أو امرأة إذا عرف عنها أنها توددت وتحدثت معها، أما هذه المرة فقد أحست مع أول قبلة وضعها شوقي الطباخ على باطن يدها أنها امرأة طاهرة ومحترمة ومرفوعة الرأس، وتغير إحساسها بنفسها وبالشوارع والناس، أصبحت تشعر بجمال شروق الشمس وصفاء السماء ورقة القطط وبهجة الورد وحلاوة الإحساس بأنها شخص غير منبوذ، كان قلبها يدق بقوة من الفرحة عندما تسمع كلمة ست الكل أو كلمة شيماء هانم .

أحست أنها حققت شيئاً ذا قيمة في حياتها، تمنى الآن أن تحصل على طفل من شوقي وتجرب إحساس الأمومة النقي الذي لم تعرفه من قبل، لكنها قررت أن تفعل شيئاً قبل كل هذه الأفراح واتفقت مع شوقي بعد انتهاء شهر العسل على تنفيذ رغبتها وعلى نفقتها الخاصة.

٩

لم يكن شوقي زوج شيماء الجديد بعد أن وصلا مكة المكرمة لأداء مناسك العمرة يعلم ماذا يعتمل في قلب وعقل زوجته، كأنها تقاد إلى غرفة الإعدام ثقيلة الخطى زائغة العينين شاردة الذهن لا تبتسم ولا تنطق، عندما تواجهت مع الكعبة وجهاً لوجه خرت على ركبتيها وأخذت تبكي.

نواح غريب ممدود ينبع منها ودموع غزيرة وتتهادت شاقة تطلع من عمق البطن وتخرج من فمها وأنفها، كان شوقي يواسيها ويسألها عما حدث دون أن يستوعب، كانت صامتة لكن قلبها كان يتكلم.

كانت تناجي الله: " اغفر لي، سامحني، اقبلني، أنا مخطئة، تعلقت
ببابك فاقبلني، لا تردني يا رب، أرجو رحمتك يا رب، يا رحيم
ارحمني"

مضت دقائق بطول عمرها كله، كلما رفعت عينيها إلى الكعبة
شعرت بالخزي والانكسار فتصرف عينيها إلى الأرض، شوقي
يواسيها والمعتزمون يتعثرون بهما ويتأفون من تعطيل انسيابية
الطواف.

شعرت بتعاسة كاملة، فقدت الأمل في المغفرة والصفح، كلما رفعت
بصرها للكعبة خسئت عيناها، فهوت بوجهها على الأرض وسجدت
وهي تلهث في أعماقها: " سامحني يا رب ، سامحني يا رب،
سامحني يا رب"

كان شوقي حائراً عاجزاً عن الفهم والتصرف، اغتم غماً كبيراً،
ضاقت نفسه بما يحدث، بدأ يتعصب ويختنق، يلمس ذراعها بغلظة
وهي منكفئة على وجهها وتمرغ وجهها في البلاط الرخامي للحرم.

كانت يائسة نصف اليأس والأمل يضيء قلبها لأنها تعرف حكاية
عن امرأة جاءت إلى هذه البقعة الطاهرة ولم تر الكعبة أبداً، بل كلما
نظرت رأت أقدام المعتمرين فقط وعجزت عن رؤية الكعبة وإذا
صرفت بصرها إلى جهة أخرى ترى بوضوح، فعرفت أنها ملعونة.

تلك المرأة كانت تعمل بالسحر وكانت تخفي الطلاسـم والأعمال
السحرية في أفواه الموتى، تفتح القبر وتدس الطلسم في فم الميت
وتغلق القبر مرة أخرى.

لكن شيماء قادرة على رؤية الكعبة، وتشعر في أعماقها أنه سيقبلها
ويغفر لها ما كان.

سكنت تنهداتها وتباطأ صدرها عن الهبوط والصعود، جفت الدموع
وشعرت براحة وطمأنينة ويد حانية أمسكت ذراعها من تحت إبطها
وجذبتها لتقوم، فقامت خفيفة نشيطة بلا مقاومة وبلا ثقل في قدميها
فوجدت أمامها امرأة سوداء كالفتح تبتسم لها بأسنان كاللؤلؤ الأبيض
الناصع وتقول لها: شدي حيلك واثبتي عمرة مقبولة إن شاء الله،
وأشارت لها أن تذهب لتغسل وجهها وتشرب من سبيل البئر،
استدارت لتتظر تجاه بئر زمزم ثم استجمعت عقلها المشتت لتشكر
المرأة الطيبة لكن لم تجدها فقد اختفت في الزحام.

قال شوقي الحمد لله أنك بخير: ثم سارا معاً إلى الماء.

١٠

سميحة كانت تنتظر الحب، الشيء الوحيد الذي لم تحققه في حياتها
مع أي إنسان سوى فايز، رغم مرور الأيام والسنوات لم تنسه أبداً،
غير رقم هاتفه كأنه كان يعرف أنها ستتصل به ذات يوم، فكرت

في زيارة ابو غاز وأهله ورؤية الأحباب، لتطل على فايز في مخزن الطواهرجي حيث يعمل، لكنها ترددت ولم تحبذ أمها الفكرة لكي لا ينظر الناس إليها نظرة رخيصة.

كانت الحاجة شيماء مرعوبة أن تعود سيرة الماضي على الألسنة ويقال البنت طلعت لأمها.

فايز لم يتتبع أخبار سميحة وأغلق قلبه على جراحه وتناسى الحب الذي كسر قلبه، مثل جثة جميلة لطفلة حسناء في الخامسة دفنت في مقبرة ذهبية، وارى فايز حبه الكبير في مقبرة النسيان، لكنه لم يتوقع أن الأيام ستدور والأماكن ستتعانق ويلتقي العاشقان.

عندما شاهدته في الصيدلية المقابلة لمحل كوافير أمها وهي تشتري معجون أسنان صعت، شهقت وقالت فايز: غير ممكن! يا الله .

- أهلا سميحة صدفة جميلة.. كيف حالك ؟

ظل فايز يطيل النظر ل د. سميحة ويتبادلان نظرات وابتسامات لطيفة ودموعاً في صمت، وقفا أمام بعضهما كصنمين من لحم.

- ماذا تفعل هنا؟

- أعمل هنا .

- منذ متى ؟

- منذ أسبوعين تقريباً

- لماذا تركت البو غاز والحاج مدحت ما الذي حدث؟

- هذه الصيدلية ملك ابنته منى وهيا هنا أيضا في مدينة نصر..
معي.

أصيبت بدهشة وصدمة ولم تفهم ما أدركه عقلها أو بالأحرى لم
تتقبل الفكرة. لم تُضع وقتها، سألتها هنا بمعنى ماذا ؟

- منى امرأتي.

دخلت زبونة ونظرت لسميحة بعداء كأنها ضررتها ومازحت فايز
ومازحها وطلبت ستة بالأجنحة وشامبو سباركل ومعجون
سنسوداين وفرشاة أسنان جوردان ومزيل عرق ومناديل وظلت
تضحك وتداعب فايز وهو يجاريها حتى كادت سميحة أن تتفجر.

" تبا للنساء، أعظم السيدات مكانة تصبح امرأة نزقة بلهاء إذا
وجدت أي امرأة بصحبة رجل، عندها فقط يحلو في عينيها، على
الرغم أنها لا تبالي به أبدا وهو أمامها طوال الوقت، فقط عندما
تدخل امرأة مدار الرجل، تستدعي المرأة كل مواهبها للفت انتباهه
والاستحواذ عليه بدون وعي"

حدثت نفسها وزفرت وانتقلت من الكلام الداخلي إلى التلفظ وقالت
بقرف: أوف.

انصرفت الزبونة الدلوعة، قالت سميحة: هل يمكننا أن نتكلم في مكان غير هنا؟

- بالطبع يا حبي دقائق فقط.

أغلق الصيدلية لأجل عيونها، ترك سيارته وركب معها، تناولوا عشاء متميزاً وغريباً من اللحوم والطواجن والبيتزا، لم يعجبه الطعام ولم يأكل جيداً، سألته هل الأكل لا يعجبك؟ ضحك وقال لها: اغفري لي. أنسيت أنني ابن بحر؟!

قالت: قم نذهب لمطعم مأكولات بحرية سيعجبك، لماذا لم تخبرني بما تحب؟ قال: لا. لا. هذا المكان رائع لنبق هنا.

حكّت له الجزء الجميل من حكايتها وأخبرته أنها أصبحت أرملة. كان يعرف أنها تريده بطريقة ما، لعبة لم تملكها، لم تحطمها في طفولتها مثلما يفعل الأطفال، كانت تتوهم أنها تحبه.

هو أيضاً يريدّها، لكنه لم يدرك بعد الشكل الذي ستكون عليه هذه العلاقة، ما يزال يحبها لكنه أصبح أكثر ضعفاً أمام جمالها ودلالها وكانت ضحكاتها تشعل في قلبه ألف شمعة.

تبادلا أرقام الهواتف وحسابات الفاسبوك والواتس آب ووعدا أن يحكي لها حكايته.

في طريق العودة حيث تقف سيارته، مرت أمام شقتها وقالت: أنا أعيش هنا، أنا بارعة في إعداد القهوة.

تحجج أن الوقت تأخر وأن زوجته ستنشغل عليه وأنه لم يستعد لسهرة كهذه .

لم تعقب على كلماته، زفرت غاضبة وانطلقت بالسيارة لتوصيله إلى الصيدلية، رسمت ابتسامة كاذبة على وجهها ولوحت له بأصابعها وانطلقت وهي تكاد تنفجر من الغيظ.

لم يكن يجرؤ أن يصعد معها، يحترق من الداخل شبقاً ورغبة، لكن ماذا سيحدث لو تكررت المأساة؟ لا يمكنه أن يظهر كديك يصعد التل ويهبط بعد دقيقة واحدة، ندم أنه حرم نفسه من تقبيلها.

فتح الصيدلية وأغلق الباب. أطفأ اللمبات وجلس مع نفسه يحلم بحبيبة العمر.

كان فايز يفتنها، ليس فقط كحب قديم لم يتجاوزا حدود المناوشات الكلامية بالإيحاء، بل لأسباب كثيرة، ككبريائه واعتزازه بنفسه والثقة الزائدة بالنفس، ورائحة الرجولة التي تستنشقها من جسده، ونظرات عينيه التي تربكها وتشعرها بالضعف وإحساسها بمتعة شاذة عندما يطلب منها شيئاً ما ويأمرها به فتنفذه وهي لا تطيع أمراً لأحد وإحساسها الدائم أنه يفهمها جيداً وأنها مكشوفة بالنسبة إليه

دائماً، إحساسها الهائل بالأمان وأنها لا تخشى أي شيء وهي معه،
والأهم من كل ذلك الآن ... منى .

كان رجلاً مختلفاً عن الآخرين هكذا أحسته، وكلما بهتَ كفكرة
بداخلها وتصورت امرأة أخرى تقترب منه أو تملكه تتحول إلى
إنسانة شريرة مجنونة مليئة بالأفكار الشيطانية وخصوصاً ... منى.

كانت تصعد سلم العمارة وهي تتحدث إلى نفسها بصوت خافت،
بحسرة ومرارة وحسد: " منى العرجاء القصيرة حولاء العينين،
منى السمرء العادية تتزوج فايز؟

زمن غريب جداً، تنهدت وزفرت وأخرجت سلسلة مفاتيحها أمام
الباب وهي تقول اللازمة الشهيرة الملصقة بلسانها: أوف.

لم تمر ساعة واحدة على عودتها لغرفتها بعد توصيل فايز، جهزت
الحمام لنفسها وتحممت وتعطرت، ارتدت أجمل قطع الملابس لديها
، الجوارب الطويلة المعلقة بمشابك صغيرة، صفتت شعرها بعناية،
ارتدت حذاءها الأحمر طويل الكعبين، أحست أن رأسها تكاد تصدم
السقف، مشت وقعدت واستدارت وانحنى أمام المرأة الكبيرة بطول
مترين وعرض متر داخل برواز خشبي مذهب فخم النقوش، فتحت
اللاب توب، بحثت عن حسابه على فيس بوك، أرسلت إليه طلب
صداقة، قبله خلال دقيقة واحدة ، كتبت له أول رسالة

: - منور يا قمر

قال : أهلا يا قمر نورك.

- أنت وحدك ؟

- نعم. وحدي.

- والهانم.. أين هي يا ترى ؟ منى هانم.

- في غرفة خاصة بيها، توقفي عن السخرية، لن تتغيري أبدا
وضحك.

- واو سيت امبو سييل كل واحد في غرفة! هل من الممكن أن
نتحدث الآن ؟

- طبعاً ممكن.

اتصلت به مضت ساعة، اشتكى لها الوحدة والحرمان والبرودة التي
غلقت حياته وأزمة الشك في داخله عن طفليه، ونفوره من منى
وعدم اقترابه منها منذ أكثر من عام، واسته بكلمات ناعمة وقالت
له: عندك كام؟

- كام إيه ؟

- كام يا قلبي كاميرا.

- ضحك وقال: نعم. عندي.

- تعال معي إلى ماسنجر الياهو سأرسل لك حسابي الإلكتروني في رسالة على الفيس.

قطعت الاتصال، مضت دقائق وهو في قمة التوتر، قام وصف شعره وتأمل ملامحه في المرأة، قام بتسجيل الدخول إلى برنامج المحادثات ياهو ماسينجر، أضافها، قبلته.

سرح فكره في صوتها الناعم واندفاعها الحميم تجاهه وحرمانه منها وضياعها منه بسبب فقره وعشقها للمال والمظاهر والأضواء، ضبط الكاميرا على وجهه وصدره، وضعها في زاوية يحبها من وجهه أفضل من زاوية وجهه الأخرى، فهو يقول لنفسه دائماً: الجهة اليمنى حمل وديع واليسرى ذئب.

عندما وقعت عيناه على شعرها المسدل على كتفيها ووجهها الأبيض المشرق وعينيها الزرقاوين جرت الدماء في العروق الصدئة، كانت رقبتها تلمع كموزة مقشورة، ولما رأى الحمالين الأحمرين يلمعان على عاتقها انزع قلبه، ابتعدت عن الكاميرا قليلاً فظهرت لؤلؤتان.

شهق وانتقص معتدلاً في سريريه، اتسعت عيناه، أحس أن جنية تهمس في أذنيه، طار عقله كهدهد يسبح في الزمن، تجسدت جيهان أمام عينيهِ في تفاصيل سميحة وجمالها الذي هتك ستر الليل وستر السكون والخمول والعجز الذي أصابه في الفترة الماضية، نطق الاسم بدون وعي: جيهان.

كانت سماعات الكمبيوتر في أذنيه والمايك أمام فمه رنَّ الاسم في أذني سميحة كعملة فضية سقطت على السراميك: جيهان.

تغير لونه وبدا أكثر استثارة وتحفزاً، قال لها: جمالك رهيب.

قالت له: من جيهان ؟

قال لها: هذه حكاية طويلة وعجيبة لم أحكها لأحد.

قالت: احك لي. أحب أن أعرف عنك كل شيء، أنت لم تفتح لي قلبك طوال علاقتنا هل تتذكر؟ سألتك مئات المرات ولم تجبني، كنت كئُوماً معي دائماً كأني غريبة عنك، ألم يحن الوقت المناسب لتخبرني عن سبب حزنك طوال السنين الماضية ؟ أنا لا أخفي عليك لا أكاد أصدق أن الطواهرجي وافق على زواجك من منى. هذا الموضوع يستفزني ويثير فضولي وأحب أن أعرف كيف سارت الأمور بعدما فرقتنا الأيام.

قال: تقصدين بعدما تخلّيت عني.

- لا تقل ذلك أنت تقتلني بهذه الكلمة أستحلفك بأمك ألا تدبّحني بكلماتك، احك لي، فضفض لسميحة .. حبيبتيك، تكلم.

إنها اللحظة التي ينتظرها فايز ليتخفف من عبء ذكرياته، ويُسقط عن عاتقيه حملاً ثقيلاً تمنى أن يشاركه فيه أي شخص، لم يستطع أن يحكي الحكاية لزوجته منى، ربما لأنها بنت ناس ومحتشمة

ووقورة وعاقلة خاف أن يكشف لها خفايا ماضيه الشائه، لكنه وجد في سميحة شيئاً مشجعاً، كان يشتهيها ويريدها وكانت تريده، يؤمن في داخله أنها نسخة متطورة من جيهان، بظروف أفضل، وزمن أكثر تناسباً، وبوعي أكثر حدة من سذاجة جيهان. فسميحة تبدو له كبحر هائج تتحطم فيه أكبر السفن، فهي امرأة قوية وذكية وتحقق أهدافها بدون معاناة.

قالت له: ما رأيك أن تأتي إليّ الآن أنا لن أذهب إلى أي مكان غداً؟
يمكنك أن تحكي كل شيء لن يقطعك أحد ولن يزعجك أحد.. غيري.

وعدها فايز أن يحكي كل شيء لكن ليس هذه الليلة.

١١

أشعل سيجارة، كأنه يشاهد شاشة عرض نقية الألوان، مرت أمام عينيهِ كل أحداث عمره الفائت.

فايز يتيم الأب والأم، تربى في مخزن الأسماك عند المعلم مدحت الطواهرجي منذ أن كان في العاشرة يوم مات أبوه، حصل على شهادته الجامعية بصعوبة بالغة فالمهنة تدهس المدرسة دائماً، لكن

وصية أبيه للمعلم مدحت صديقه المقرب هي سبب إتمامه لتعليمه،
تم إعفاؤه من الخدمة العسكرية فهو وحيد، كان أبوه رجلاً طيباً
يعمل في مطعم فول وفلافل، كان خبيراً في إعداد عجينة الطعمية
وأسرارها وكمية الكربونات التي يضعها مع البقدونس والكزبرة
والمح والفول تجعل طعمية أبو فايز تنتفخ وهي خاوية من الداخل
وتقرمش بطعم لذيذ ومذاق متميز لحبات السمسم المتناثر على وجه
الأقراص، كان فايز يتذكر الحركات العجيبة التي يصنعها أبوه أمام
المقلاة الواسعة وهو يثبت يده اليسرى في طبق كبير مليء بعجينة
الطعمية ويملاً القبضة الموضوعة على شكل كوب نائم على جانبه،
ثم يضخ باحتراف العجينة إلى يده اليمنى بفتح يده في العجينة
وضمها فيأخذ قبضة عجينة صغيرة ويضعها في الزيت فتأخذ شكل
الدائرة ويظل يأخذ من يده اليسرى إلى اليمنى إلى مقلاة الزيت
الكبيرة حتى تزدحم بالأقراص، ثم يبلل يديه بالماء ويمسك بملقعة
كبيرة مستديرة بحجم صينية شاي صغيرة ويد طويلة مصنوعة من
أسلاك حديدية رفيعة، ثم يقلب الأقراص حتى تنضج ثم يخرجها من
الزيت ويضعها في وعاء نحاسي مثقوب من القعر كعيون المصفاة
لتصفية الزيت من الطعمية إلى قاعدة نحاسية كالأسطوانة يتجمع
فيها الزيت المتسرب، من أجل استخدامه مرة أخرى، والرجال
والنساء والأولاد يتسارعون لتعبئة الأقراص في قراطيس من
الورق وتلسعهم حرارة الطعمية الساخنة وهم في قمة المتعة لذلك،
كان فايز يسأل والده دائماً من أين يحضرون هذه الكتب المدرسية

التي يدرسها في المدرسة ولماذا تباع فيها أقراص الطعمية؟ كان منظر الكتب المحتقرة الممزقة يزعج فايز نفسياً، وكان أبوه يبرر له الموضوع بأنها كتب فائضة عن عدد التلاميذ في الفصول ولذلك يتم بيعها، وكان فايز يناقش أباه ولماذا لا تمنح للتلاميذ الجدد في السنة القادمة ؟

كانت أسئلته تربك والده ولكنها كانت تفرحه بنبوغ وذكاء ابنه الوحيد. يفرح بالإجازات المدرسية ليذهب مع أبيه إلى مدينة البو غاز وهي آخر الأرض التي تطل على البحر المتوسط في آخر مصب نهر النيل، وتقابلها على ضفة النهر من جهة مغرب الشمس مدينة سياحية تشبه خريطتها الأرخبيل، وهي مصيف قديم زاره في الماضي نخبة من أهل الفن والموسيقى والسياسة.

يظل مع أبيه في كل عطلة رسمية حتى نهاية اليوم في مطعم الحاج مدحت الطواهرجي، الرجل الثري الذي يملك مطاعم فول وفلافل ومطاعم مأكولات بحرية وورش بناء مراكب ومخازن أسماك ومحلات في صدر السوق تباع الأسماك الفاخرة والشعبية.

ورث كارم الفار والد فايز، بيتاً صغيراً من عمه في قرية الملح، فلم يكن لعمه أولاد ولم يكن في العائلة أحد يستحق المنزل سوى كارم الفقير المشهور بالطيبة ولين الجانب وحلاوة اللسان والابتسامة الدائمة والقناعة العجيبة، ففي أيام كثيرة كان غداء كارم أرزاً وسكراً، يقوم برش السكر على طبق الأرز المطبوخ ببراعة ويأكل

ويشبع بمنتهى الاستمتاع والرضا، لم يكن كارم منشغلاً بما يمتلكه الناس كان منشغلاً بنفسه مقتنعاً برزقه القليل، حتى في الإنجاب فلم يرزق سوى بابنه فايز بعد رجاء الله سنوات طويلة ودعاء وبكاء خفي في السجود الطويل في صلواته المنزلية، حتى تتعالى أصوات نحيبه وتهدر للحظات ثم تخفت وتبتل سجادة الصلاة من كثرة الدموع.

كارم الفار تربطه صداقة منذ الصغر بمدحت الطواهرجي قبل أن ينتقل إلى بيته التمليك في قرية الملح، بعد أن ترك الشقة المستأجرة لأصحابها، في مدينة البو غاز.

أم فايز توفيت وعمره خمسة أعوام أنجبته في السابعة والثلاثين من عمرها وكان كارم في الثانية والخمسين، بعد يأس كامل من الإنجاب وزيارة الأطباء والعرافين، حبلت به " رضوى " رغم وجود مخاطر على حياتها. كانت سعيدة أنها ستحقق أمنية غالية لها ولزوجها، كانت تتمناها فتاة، ولكن الله أراد له ولداً وأسمته فايز، كان كل حياتها، تخاف عليه من العين والبرد والشمس ومن جنون أبيه به، عندما أتم الخامسة من عمره أرادت أن تحتفل بابنها الوحيد وتقيم له عيد ميلاد، أخذته بعد العصر لتشتري تورتة وشموعاً وبالونات ملونة وملابس جديدة، ادخرت لذلك عدة أشهر، ركبت الميكروباص من قريتها إلى المدينة الباسلة كما يسميها أهلها وأجلسته بجوارها، كانت فرحة وهي تشاهد المحلات الفخمة

والملابس والأحذية والمطاعم، تتمنى أن تدخلها وتجرب وتقيس الموديلات وتشتري عطوراً وعلب مكياج وملابس نسائية ألهمت مشاعرها الفقيرة على تماثيل المانيكان في المحلات التي كشفت لها كم هي عاجزة وفقيرة ولا تمتلك إلا المشاهدة والأمنيات.

اشتريت رضوى لابنها بدلة كاملة برابطة عنق ومسدساً لعبة وتورته وشموعاً، سارت بشارع التجاري ومتعت عينيها بمشاهدات وأمنيات أن يجيء يوم تشتري فيه ما تشاء، مع آذان المغرب كانت في طريق العودة إلى قريتها، سائق الميكروباص مستهتر يعبر بين السيارات بجرأة وبلاهة عابثة، قالت له عدة مرات: على مهلك يا أسطى، وتشبثت بابنها هلعاً، السائق يسير بسرعة مائة وعشرين كيلو متراً في الساعة، عندها قال له الراكب الذي بجواره وقد ملأ القلق قلبه:

- خفف سرعتك يا أسطى أنت معك أرواح.

- هل تسمي هذه سرعة يا باشا؟ أرواحنا بيد الله لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا، اطمئن أنا سائق درجة أولى وسحب نفساً عميقاً من سيجارته ونفثه فوق.

رد راكب وراء السائق أولى وإلا ثانية على مهلك الله يهديك .

تشتم أحد الركاب رائحة الدخان وقال بصوت متعطش: حشيش .

قال السائق بقرف وهو ينفث دخان السيجارة ويترنح من أثر المخدر: من عيوني يا حلوين.

كلما مر على مطب هوائي في الطريق شهق الركاب فزعاً وتوهموا أن السيارة ستتقلب.

وصلت رضوى. لم تصدق أنها نجت بسلام من استهتار هذا السائق .

نزلت هي والولد والتورته والمسدس والبدلة وهي تقفز من الفرحة أنها وصلت بالسلامة إلى مشارف الحي، البيوت متلاصقة واطئة تطفح بالرطوبة وتنزّ مياه الصرف الصحي في الشقق الأرضية، الشوارع ضيقة لا تزيد عن مترين وأحياناً يكون عرض الطريق - بين عشرات البيوت المتلاحمة - متراً واحداً فقط.

صعدت السلم الضيق إلى شقتها في الطابق الثاني، الدور الأرضي محل كبير واسع لبيع الغلال بمساحة البيت الذي يتجاوز ستين متراً.

في التورته غرست خمس شمعات وأشعلتها، فرحت بابنها وفرح بها وأطفأت الشمع، حاولت إقناعه أن ينتظر عودة أبيه ليحتفلوا جميعاً لكنه كان حزيناً ومستاء ولم يصبر.

في العاشرة عاد كارم من عمله، أكل من التورته بعد تناول الغداء، جلس في الفراش يتأمل ابنه ويقبله بهدوء ورضوى تحذره برقة ألا يوقظه، فقد نام بعد أن أنهكه اللعب بالمسدس وارتداء البدلة.

كانت ليلة حميمة بين الزوجين، ناما متعانقين، في الفجر تسلل كارم من الفراش، وهو يغطي زوجته برفق وحنان ويقبل جبينها، لاحظ أنها باردة تماماً، اقشعر بدنه وارتجف، وضع أذنه فوق صدرها، لم يسمع أي نبض، وضع أنفه أمام أنفها، لم تكن تتنفس، كانت رضوى تبتسم، تبتسم بالفعل وهي في العالم الآخر.

١٢

عندما تزوج كارم بعد وفاة رضوى بعام لم يجد السعادة والراحة مع جيهان زوجته الجديدة، كانت تبدو لطيفة وحنونة وجذابة قبل زواجهما، وكان كارم بحاجة لامرأة تخدمه هو وابنه وتدفي فراشه البارد منذ رحيل رضوى، بدت له منكسرة ومحطمة عندما قرر الزواج بها، لكن تكشفت الحقائق تباعاً وذهبت الغشاوة عن عينيه، ظهرت قسوتها على فايز وعليه، سليطة اللسان وعدوانية، تصنع الخلافات مع باعة الخضار والأسماك والجيران، ترفس الكلاب الأهلية التي تعيش بين الناس، لو حاولت التودد لها من أجل رغيف ، أو عظمة دجاجة أو بطة.

تنزل من البيت لإلقاء أكياس القمامة ببقايا الطعام، يمكنها إعطاء هذه الحيوانات المسكينة الخرساء بعض الحنان والرأفة، ووضع

بقايا الأسماك والدجاج لأجل هذه الحيوانات الجائعة، كانت تعتمد إلقاءها في صندوق القمامة الغائر ووضع الكيس بداخل كيس وإحكام إغلاقه حتى تتعذب القطط والكلاب في الوصول إلى داخله إن قدرت على ذلك، فصندوق القمامة كان برميلا عميقا وعندما لا يكون ممتلئا تخشى القطط النزول إليه خوفا أن تدفن حية تحت الأكياس التي ستتراكم في البرميل وتنتظر أن يمتلأ لتفتش عن رزقها بأمان.

كانت كالحجر بلا مشاعر وبلا ذرة وفاء في دمائها لأحد، تلمع عيناها دائما بسر غامض وبريق يصب الرهبة في قلوب الناس والحيوانات عندما تنتظر في أعينهم، كانت تسيطر على والد فايز والبيت والجدران والهواء الذي يمر قبل أن تتنفسه الصدور الحاملة بحياة بسيطة مسالمة، مرت أربعة أعوام ولم تنجب، أصبح أبو فايز مغتماً لذلك لأن هذه الزيجة أخذت كل ما قام بادخاره من نقود لسنوات طويلة، كانت فارعة طويلة بيضاء جميلة القوام والتفاصيل، تلهب خيال الرجال في البلدة وترعبهم، كانت أرملة لثلاثة رجال، ولم تنجب أطفالا من أي رجل من أزواجها.

رجال كثيرون يتأملونها برغبة محمومة، في كل مرة تنزل لتتسوق وهي تدب بقدميها الأرض وتهتز وهي تمشي بكبرياء وعظمة، كأنها ابنة العمدة، أو حاکمة البلدة، لكن لم يعد أي رجل يفكر في الزواج منها رغم تفاصيلها الجذابة.

كانت غريبة عن البلد. جاءت وهي شابة مراهرة مع زوجها الأول واستقرا بقرية الملح، عاشت معه تسعة أعوام ورحل تاركاً لها ملابسه وحذائه ومركب صيد صغيرة وشقة بالإيجار، غادرتها وسلمت مفتاحها، قبل زواجها الثاني، تخلصت من المركب التي لم تستطع برزقها القليل من أسماك البلطي والبورى طوال حياتها مع زوجها الراحل من شراء "دبلة ذهب" ولا ادخرت مائة جنيه، الرزق الذي يأتي يكفي للحياة بصعوبة، فالبحيرة لم تعد مثل الماضي واعتماد زوجها على شبكة "الطراحة" التي يلقيها بيديه وشبكة الصيد الصغيرة المتهاكة لم تحقق الأحلام أبداً للزوجين.

عاشت جيهان ثلاثة أعوام مع زوجها الثاني ومثل زواجها الأول لم تنجب أطفالاً ولم يهتم زوجها لذلك فلديه خمسة أبناء وبناتان وقد تزوج جيهان عشقاً لمفاتها، وعندما انقلبت السيارة الميكروباص على الطريق الدولي لم ينج من الحادث، وترملت للمرة الثانية، وأصبحت مهددة بالطرد في الشارع من أبناء زوجها لأن المرحوم كتب بأسماء أولاده كل شيء ولم يترك لزوجته إلا خاتمين وأسورة وقرطاً عيار ثمانية عشرة، فتحت بئسهم دفتر توفير في البوسطة سرا.

لم يكن لديها أثاث منزلي، طردها أبناء زوجها بلا شفقة، أخبروها أن تعود إلى بلدها التي جاءت منها أو تذهب في داهية، فالأمر لا يخصهم، بكت وتوسلت واستبسلت للبقاء في شقة الزوجية، لأنها

ليس لها أحد في هذه الدنيا إلا هذه الجدران الخرساء، لكن لم يرحمها أحد.

تدخل الطيبون، ذهبت إلى مركز الشرطة لتقدم بلاغا، أظهرت للضابط كدمات وعلامات زرقاء وحمراء من أثار الضرب والاعتداء عليها من أولاد المرحوم، حيث طلب الضابط معاينة على الطبيعة، ليتأكد من صدق أقوالها.

تحمس الضابط وأرسل معها مخابراً وأمين شرطة لكنها وجدت ملابسها على الرصيف ، ولم تدخل شقتها مرة ثانية.

تجمع الناس لصراخها وبكائها، تشجع الشيخ عابد وعرض عليها الزواج. استضافها في منزله مع بناته وبعد العدة تزوجا في المسجد.

كانت امرأة قوية مبهرة الجسد، الشيخ عابد في الثانية والستين وهي في الثلاثين وتبدو كشابة تحت العشرين.

ماتت زوجة الشيخ منذ عامين وانشغل ببناته وتزويجهن لكنه لما رأى مفاتها فقد عقله وعرض عليها الزواج.

أسكنها في الشقة العلوية التي يعتكف فيها، يقرأ في كتب السحر ويجرب الطلاس والتعاويذ التي تجلب الرزق وتلهب قلب الحبيب، وتفك المربوط وتعالج المسحور.

كان يعتقد أن العفاريت تخدمه وتهمس في أذنيه وتقذف الكلمات في روعه وينفق أموالاً كثيرة على البخور والمسك، الخرافات تتلاعب به و يظن نفسه مباركاً أنفاسه طاهرة ويده شافية.

ذات يوم جاء إليه شاب مربوط عن زوجته، هكذا أخبروه، ظل الشيخ يقرأ ويحرق البخور ويجتهد لعلاج الشاب المسكين وأخبره أنه شُفي من السحر، وسقاه ماءً ذوّب فيه ورقة عليها حروف متفرقة باللون الأحمر الباهت، ذهب الشاب إلى عروسه ولم يتم له الأمر لكن كرامته لم تسمح له بقول الحقيقة وأوهم أهله أنه كامل الرجولة وذاع صيت الشيخ المعالج الروحاني، ولكن بعد شهر فضحت الشابة زوجها وأخبرت أهل الحارة كلهم أنها عذراء بختم الله وأن عريسها لم يستطع.

رغم انتشار خبر الفضيحة ظل المرضى يتوافدون على الشيخ الروحاني للعلاج ، وذات ليلة كان يطارد عفريتاً يسكن في جسد فتاة مريضة بالصرع، فقام بتسخين سيخ حديدي على النار وظل يطارد العفريت في كل مكان من جسد الفتاة حتى أصابها بحروق بليغة في رجليها وذراعيها ووجهها.

كان الشيخ يستضيف الشيوخ الرحل السائحين في حب الله من الدعاة العجائز والشباب الذين باعوا الدنيا واشتروا الآخرة وخرجوا طائفين بالدعوة في البلاد شرقاً وغرباً، يقيمون يوماً كاملاً في كل مسجد يمرون به، ويطوفون بالأحياء والسوق والمقاهي والشواطئ

والمحلات والورش لدعوة الناس للصلاة والاستماع لدروس العلم في المسجد الذي يراه أغلب الناس من الداخل يوم الجمعة فقط.

كان يطيب للشيخ عابد أن يطبخ لهم طعاماً مميزاً من الأسماك أو البط أو السمان البلدي المهاجر من أوربا ويقع في شباك غزل السمان الذي ينصبه الصيادون في سبتمبر من كل عام على كل شواطئ البحر والبحيرة .

لم يحتمل الشيخ افتتاحه بزوجته الفرسة وعجزه الواضح عن الاقتراب منها بشكل طبيعي واعتاد على الحبة الزرقاء، بدأ برقع حبة ثم تطور الأمر إلى نصف وفي الشهر الثاني من زواجه من هذه المرأة البديعة الأنوثة تجرأ على ابتلاع حبة فياجرا كاملة مائة ملي جرام فقضت عليه، ووجدت جيهان نفسها من جديد في الشارع، مطرودة ومتهمة أنها قتلت الشيخ التقي بإغوائها له، وصارت سيرته على كل لسان في القرية، الفياجرا قتلت الشيخ عابد لأجل مفاتن جيهان.

تكررت المأساة ثلاث مرات في حياتها لكنها اختارت هذه المرة كارم الفار والد فايز فهو يملك بيتاً من طابقين ولديه ولد واحد فقط ، فتننته بجمالها وخبرتها في الرجال ولطفها وكلامها الحلو عندما كانت تقابله صدفة أمام بيته عندما تشتري أرزا أو عدسا أو غلة أو ترمساً من المحل الكبير أسفل بيت كارم ،عندما كانت على ذمة الشيخ عابد.

كان كارم يشعر تجاهها بالضعف وعندما علم بوفاة الشيخ وأن أولاده طردوها سأل عنها وأدركها على الطريق قبل أن تترك القرية.

كانت شهور العدة مشكلة عصبية، جيهان ليس لها مأوى، تحير أين تسكن حتى تنتقضي العدة؟

استطاع بلسانه العذب وطيبته وشهامته وحب الناس له إقناع جارته أم فوزي باستضافة جيهان فترة شهور العدة.

فرح جيهان وكارم تم فوق سطح البيت، جاء عمال الفراشة والإنارة ونصبوا حبال النور بعناقيد من اللمبات على واجهة البيت وفوق السطح، ومن صوت ماكينة توليد الكهرباء عرفت القرية أن حفل خطوبة أو زفاف سيتم اليوم.

تم كتب الكتاب على عبارة الصداق المسمى بيننا في غرفة الصالون دون أي اعتراض من جيهان فهي في ظروف لا تسمح لها بالمساومة وتأمين حقوقها.

تم وضع الكراسي على السطح وجلس العروسان في كوشة من الورد جاءت هدية من جار له، ودوت الزغاريد في حضور الجيران وشرب الجميع عصير كوكتيل قام فوزي بتوزيعه على الحاضرين، ثم قام فوزي بتشغيل الكمبيوتر الذي أحضره من بيتهم وأجهزة الصب ساوند (السماعات الكبيرة) وانطلقت الأغاني

ورقص الأطفال والبنات وفي حوالي الساعة التاسعة انصرف الناس وأطفئت الأنوار وسكتت ماكينة توليد الكهرباء المزعجة ونزل كارم وجيهان ومعهما فايز إلى الشقة لإحياء ليلة العمر.

أخرج كارم علبة جاتو من الثلاجة بها ست قطع وأعطى ولده الوحيد ثلاث قطع تباعاً وعلبة عصير وملبس وشكولاتة.

كان الولد منبهراً بالكمبيوتر الذي دخل البيت مع جيهان كقدس الأقداس في جهازها كعروس جديدة ووصلة إنترنت.

فايز ظن أنه سيتاح له اللعب والاستمتاع عليه بدل الاختناق من رائحة السجائر في سيرر الكمبيوتر وإضاءة مصروفه دائماً على لعبة جاتا فور.

كانت جيهان تجهز عشاء العرسان وتحمر الكبدية البلدي بالبصل في الزيت بعد تحمير الحمام الذي أرسله جارهم المراهق فوزي هدية للعروسين من تربية يديه.

كانت ليلة عادية وباردة ومملة على جيهان مع كارم ، دقائق وانتهت الليلة، والحمام والكبدية المقلية والعشاء الاحتفالي لم يأكل كارم إلا القليل منه ونام مرهقا كالقتيل، درجة حرارتها أكبر مما يستطيع كارم أن يحتمل.

حاولت إقناعه كثيراً بكتابة البيت باسمها لكنه ارتعب من الفكرة فهي ليست أم ابنه ولم تنجب له أبناء لتربطهم الأخوة معا، ظلت تلح عليه

سنة بعد سنة حتى كتب البيت مناصفة بين جيهان وفايز بعد خمسة أعوام من زواجهما غير المثمر.

في أحد المساءات عاد أبو فايز من عمله في العاشرة مثل كل يوم ، كان وجه زوجته غريبا و غاضبا كأنها خرجت من معركة منذ قليل، سألتها عن تغير لونها وتعكر عينيها فقالت: لم يحدث شيء، وجهزت له الغداء .

كارم لا يمكنه الغداء في البيت بل يأكل في المطعم سندويتشات فول وطعمية وفي بعض الأيام يعد لنفسه طبق فول بالقشدة مع البطاطس المقلي والباذنجان والطعمية الساخنة واللفت المملح، لأن المسافة من البيت للمطعم تستغرق ساعة كاملة في الميكروباص من قرية الملح إلى المحل في مدينة البو غاز إذا كان الطريق سالكا والزحام منعما ، ولو ذهب للغداء في البيت ستضيع ثلاث ساعات كاملة في الذهاب والإياب ووقت تناول الغداء مع زوجته، كانت إجازته الوحيدة يوم الجمعة.

أحس الأب بضيق في صدره، سألتها: فايز نام متى ؟

قالت: منذ ساعة.

قال لها: اجلسي كلي معي.

قالت بجفاء: أكلت.

أنهي طعامه وطلب منها الشاي ودخل غرفة ابنه ليطمئن عليه، كان الولد دافئاً كالمحموم أخذ يتحسس جبهته وخديه، ولاحظ خطوطاً حمراء على خده الأيمن كأنه تعرض لصفعة قوية أو صفعات متكررة، شعر الرجل بغضب عارم واعتكرت عيناه وتسارع نبض قلبه، الولد يتنهد ويعاني في النوم كمن يحلم حلمًا مفرعاً، ابنه الوحيد يئن، لم يحتمل الأب أكثر من ذلك وهز ابنه فأيقظه، عندما فتح عينيه بكى بحرقة وتعلق برقبة أبيه وعانقه بقوة وقال: وحشتني يا بابا، أخذ أبوه يسأله بعصبية - ماذا بك؟ ما الذي حدث؟

نادته بصوت ناعم وغنج: الشاي يا كارم، ثم لفقت الكذبة أنه كان يلعب مع الأولاد أمام البيت وتشاجر مع شاكِر ابن الجيران كالعادة، أخذ الأب يستفسر عما حدث وقال غاضباً ألم أقل لك لا تلعب مع أولاد الجيران؟ هل يعجبك ما حدث لك؟ وأخذ الأب يسأل إن كان فايز ضرب هو أيضاً ابن الجيران وأخذ حقه أم لا؟ كان كارم رجلاً طيب القلب ضعيفاً وليس لديه عداوات ولا يدخل في مشاكل ويفضل السلامة والحياة الهادئة حتى لو تعرض للظلم، قاطعت المرأة الحوار قائلة: الشاي سيبرد يا كارم.

قَبَّلَ الأبُ ولده المرتعب دون أن يعرف حقيقة ما جرى، سحب الغطاء عليه برفق وقال له: تصبح على خير يا حبيبي، وأطفأ النور وأغلق الباب وخرج ليشرب الشاي الذي أوشك أن يبتدر. دار بعينيه في الصالة والمطبخ والحمام لم يجد زوجته، كان نور غرفته مضاء

وهي تقف بجوار الدولاب وقد خلعت جلبابها البيتي وارتدت قميصا
كحليا قصيرا أظهر مفاتها بوضوح، زخت عطرها القوي النفاذ
الذي يلهب مشاعر كارم ويستفزه بجنون، صعدت إلى السرير
مددت ساقا وأثنت ساقا فانحسر الثوب حتى ظهرت استدارة الساق،
أنهي شرب الشاي ساخنا فأحرق فمه ودخل إليها متحفزا والدماء
الساخنة تملؤه رغبة ملحة، تشمم رائحة عطرها الشيطاني، أذابته،
لم تكد تشعر باقترابه، حاولت تحفيزه .. خارت قواه، حاولت
بخبرتها الواسعة دون أمل، صار كارم يرغبها بقلبه دون امتلاك
أداة قادرة على تحويل الرغبة إلى حياة، أعطاهما ظهره وراح في
نوم عميق وهي تنتظر إليه بحسرة.

١٣

نهضت جيهان، أطفأت النور، تسللت خارجة من الغرفة، أغلقت
الباب بهدوء، دخلت إلى الحمام، أخذت دش بارد، تذكرت كيف
كانت تجلس القرفصاء وتمد يدها عميقاً وتتنظر بسخرية إلى ماء
الحياة وهو يسبح مع الماء ليستقر في بالوعة الحمام الأرضية، لم
تفكر في تركيب وسائل منع، كانت يدها خبيرة في تعقب الماء
وانتزاعه من قناة القرار المكين.

لم تفكر في إنجاب طفل من كارم، كما فعلت مع أزواجها السابقين، تشعر بغربة دائمة عن البلد وأهلها، تؤمن في أعماقها أنه لا ينبغي أن ترتبط بأحد ولا بـمكان، هذه المرة تفكر أن تصبح وحدها مالكة لهذا المنزل المتواضع ذي الطابقين، بشقة سكنية واحدة على محل واحد بمساحة البيت تباع فيه الغلال والبقول بعقد تملكك، فلولا مبلغ خلو المحل لما تمكن كارم من تجهيز هذه الشقة للعروس الجديدة.

انتعشت وخرجت، ارتدت قميصاً أحمر قصيراً، زينت وجهها من علبة مكياج متواضعة، دخلت غرفة الصالون، فتحت درفة واحدة من شباكها، تشممت الهواء البارد، نظرت في الشارع الضيق بحثاً عن جارها الشاب فوزي، لم تجد في الشارع أحداً، كأن الحارة الضيقة ببيوتها المتلاصقة تغط في نوم أبدي.

العلاقة بين جيهان وفوزي نشأت في بيت أمه أثناء استضافتها لها طوال شهور العدة، رغم أن فوزي لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره، لم تتركه أمه يغيب عن عيناها لحظة واحدة لينفرد بها بأي شكل، كانت تشعر أن اتصالاً آخرس يجري بين ابنها وبين جيهان الحريصة المحتشمة الوقورة المنكسرة التي لا ترفع عيناها عن الأرض.

رغم احتياطات وبراعة جيهان في التمثيل، شعرت أم فوزي بشيء خاطئ، ولم تسمح لابنها المراهق أن يسقط في غرام هذه المرأة الفاتنة، لكن أم فوزي التي تغلق باب غرفتها عليها هي وجيهان لم

تكن تعرف أن برامج الهواتف الذكية قد صنعت عالماً جديداً من الرذيلة، وأن ابنها في علاقة محرمة معها عن طريق الاتصال بالإنترنت وتبادل الرسائل والصور رغم أنها أكبر منه بخمس عشرة سنة.

لم تجد جيهان أثراً لفوزي، أغلقت الشباك، قامت بتشغيل هاتفها المحمول، أجرت اتصالاً، ظهرت كلمة مشغول، كتبت رسالة من كلمتين: حبيب قلبي.

مرت دقائق، جاءها الرد: بموت فيك.

كتبت له: وحشتني موت. محتاجة لك.

فتحت الكمبيوتر وفتح فوزي جهازه في غرفته. بدأت الحفلة الصاخبة أمام كاميرا الياهو، استمرت ساعة، فكرت في الصعود إلى السطح.

كانا يلتقيان في عشة الفراخ أحياناً، لكن رائحة روث الدجاج والبط وصعوبة الاتصال وصياح الدجاج كأنه يصرخ ليفضحهما جعلت العاشقين ينتظران، كان صياح الديك عليهما يملأهما فزعاً وينقرهما نقرأً مؤلماً، فوزي كان يركله ككرة قدم، وكلما كررا اللقاء كرر الديك النقر وكرر فوزي الركل، وفكر في ذبح هذا الديك العنيد لكن جيهان حذرتة: إياك أن تقترب منه. وحكت له عن ديك مشابه كان في بيتهم وأن أمها ذبحته بالسكين، لأنه يقتل كل الديوك الأخرى

ويمزقها، وأقسمت له أنها شاهدت الديك المذبوح يقف وينتفض
ويمشي، وأن أمها فتحت باب الشقة حيث ذبحته في الحمام وصعد
الديك إلى السطح، وتسلق بالقفزات المتتالية حتى اعتلى ظهر عشة
الفراخ ثم صاح صيحات قوية ممدودة: كوكو كوكو وفرد جناحيه
كصقر وطار.

رغم أرقهما الملهب انتظرا، ففي الصباح أبو فايز في المطعم وفايز
في المدرسة. بعد المغرب تأمر الولد بالنوم رغم أنفه وتغلق الباب
عليه من الخارج والأب لا يعود قبل العاشرة.

فكرت في دعوة فوزي إلى غرفة الصالون لكنها خشيت أن يفتضح
الأمر ويشعر بها كارم خاصة أنه يقلق في الليل مرات ليذهب إلى
الحمام.

صرفت الفكرة عن رأسها رغم أرقها الشديد وقررت أن تشتري في
الصباح حبوباً منومة من الصيدلية تحتفظ بها لليلي الطويلة التي لا
تحتمل فيها الصبر لمجيء الصباح.

١٤

مع إشراقة النهار يدوي صوت نار وابور قلبي الطعمية، وأنبوبة
الغاز الطويلة تضخ غيظها من الحياة السنة متعددة من لهيب أزرق

وأحمر وبرتقالي يجعل الزيت يطقطق ويطرطش مع كل انتفاضة من يد كارم المبتلة فتلتقي قطرات الماء بالزيت المتوهج فيطرطش محدثاً بهجة غريبة، وأبو فايز يقلب الأقراص في الزيت.

يتسلل بهدوء من جوار زوجته، قبل الفجر، يستحم في الليالي الحارة، يتوضأ في الليالي الباردة، يخرج مع أول قرآن الفجر، يطمئن على ولده الوحيد، دون أن يقلقه من النوم، يحكم إغلاق باب الشقة خلفه جيداً وباب الشارع، يصلي الفجر حاضراً في الجامع بالقرية ثم يستقل ميكروباص من الموقف أو الطريق إلى مدينة البو غاز، ينزل منطقة الحرس، يستقل سيارة أخرى إلى المدينة، تمر الدقائق بسرعة، فلدى كل راكب حكاية، فإن قلّت الحكايات التهم النوم الطريق.

عندما يستغرق كارم في العمل وتمتلأ الشوارع بالناس وأطفال المدارس والأمهات والآباء، تكون جيهان قد اصطحبت فايز إلى مدرسته القريبة من البيت، تمنّت كثيراً في قلبها أن تقتله أو يهرب ولا يعود إلى البيت، كان الولد مرتعباً منها ومن قسوتها، تجبره على النوم مبكراً عند المغرب، تغلق عليه غرفته من الخارج بالمفتاح، تطفئ نور البيت بحجة توفير الكهرباء.

فايز يسمع أصوات ضحكات زوجة أبيه، يسمعها تتكلم، يسمع أصواتاً لم يسمعها تتطلق بين أبيه وبين جيهان، فكر في طريقة

يفتح بها باب غرفته، ويتسلل على أطراف أصابعه ويرى ويسمع باليقين ماذا يحدث في غرفة نوم أبيه؟

أرض الملاحات الواسعة وراء بيوت الجيران المتراسة على حدود الطريق الفاصل بين المزارع السمكية والعمران، تجعل الهدوء كفيلاً بفضح أي مهمة على شفة عابر، أو صوت ماء رجل يتبول على حائط البيت، مرت عدة أشهر على فايز منذ اكتشافه للأصوات التي تأتي باهتة إلى أذنيه من غرفة زوجة أبيه، كان يضع أذنه على الحائط المشترك بين غرفته وغرفة جيهان.

لاحظ فايز أن شباك غرفة جيهان يظل مفتوحاً أغلب الأوقات، وهو يطل على أرض مستنقعات تنتج الملح، تغلقه جيهان عندما يعود والده في العاشرة ليلاً، لأنه شباك قبلي يجلب هواء دافئاً في الشتاء ونسيماً منعشاً في الخريف لكنه يحمل قيظ الصيف الرهيب وحرارته المضجرة التي لا يمكن التعايش معها بدون مراوح واستحمام متكرر.

كان أبو فايز قام بتركيب إطار خشبي بأسلاك ناعمة كالغربال داخل حلق الشباك يفتح ويغلق، يمنع دخول الذباب والناموس ويسمح بدخول الهواء، وستارة قماش رخيصة تكفي لإعتام الغرفة نهائياً دون غلق النافذة.

ظل فايز يفكر ويفكر حتى تيقن أن هناك وسيلة واحدة لمعرفة الحقيقة.. الشباك.

عندما يحل الظلام بعد الغروب يستطيع أن يغامر ويصل إلى النافذة ليرى بعينه ماذا يحدث، استلهم الفكرة من تمرينات الكشف في المدرسة، ادخر من مصروفه القليل، استطاع بعد شهور شراء حبل طوله عشرة أمتار، كان قياس المسافة بالنسبة إليه صعباً للغاية وعندما سأل المدرس في الفصل عن الأمتار وكم بلاطة في كل متر، اكتشف الرقم خمسة!

عرف باستخدام المسطرة أن عشرين سنتيمتراً تحتاج خمس بلاطات لتكوين متر كامل، أصبحت عملية حسابية كونية لديه خمس بلاطات تساوي متراً. لاحظ أن المسافة من الشباك إلى رجل السرير ست بلاطات، والمسافة بين الشباكين تكاد تكون ضعف المسافة وعرف بفطنة وذكاء رغم سنواته العشر أنه بحاجة لحبل بطول عشرين بلاطة تقريباً، يربطه في وسطه ويربط طرفه في رجل السرير، ويتدلى من شباكه ويسير على الكمر الخرساني الممتد بمحاذاة السقف الأرضي .

الشقة في الطابق الأول العلوي، لم يخف من السقوط فلم يكن مخيفاً ولا البيت عالياً، والشباك يطل على أرض شاسعة، لكن كان يخشى أن ينكشف أمره، جرب التدلي من الشباك والوقوف على الكمر الخرساني، كاد قلبه يتوقف من الخوف، عاد سريعاً إلى الداخل، أخفى الحبل، أغلق شباكه ونام.

كرر المحاولات عبر الأيام والأسابيع، بعد شهر من التجارب استطاع الوصول إلى نافذة غرفة نوم أبيه سيرا على كمر البيت الخرساني الذي لا يزيد عرضه عن عشرة سنتيمترات، لكنه اكتشف أنه قصير القامة لا يمكنه رؤية ما يحدث في سرير أبيه.

أربكته المفاجأة، فكر في العودة إلى غرفته لكنه ألصق أذنه بالجدار واسترق السمع، أغمض عينيه والتصق بالحائط كالبرص، كان يسمع أصواتاً غريبة! ركز ذهنه بقوة. فلمع في ذهنه صوت يعرفه كصبي عندما يشتري نوعاً من الحلوى من البقالة.

لم يكن هناك أي كلمات تقال، كان الصوت وحيداً، ثابتاً، منتظماً، مستمراً، لكنه أحس انه يسمع أصوات لهاث، لهاث قوي محموم وأنين لإنسان مستسلم للذة المعاناة، لم يحتمل الصبر أكثر، بسط ذراعيه بطولهما، غرس أظفاره تحت الشباك، تشبث واحتمل على ساعديه، رفع رأسه ببطء وحرص ، كان ظهر زوجة أبيه بمواجهته، وهي منحنية بقميص قصير عاري الظهر، كانت فاتنة وخلقت بقلبه مشاعر لا يفهمها. ذهل عندما رأى جارهم الشاب صاحب غية الحمام.

شعر بدوار، كاد يسقط لولا أنه استعاد توازنه، ظل مكانه متجمداً لا يصدق ما رآه، كان قلبه يدق بعنف وترتعش أعضاؤه، تحرك ببطء، عاد إلى غرفته والمشهد الذي رآه مرسوم في مرايا عينيّه، ظل يبكي في فراشه حتى غلبه النوم.

عندما عاد أبوه وأيقظه ليطمئن عليه كالعادة لم يجرؤ أن يحكي له ما رأى.

اعتاد على طلب زوجة أبيه أن يذهب إلى النوم، وعندما تطفئ الأنوار ويظلم البيت وتبدأ الأصوات يتسلل ويذهب للمشاهدة.

جيهان لم تر فايز أمام شباكها فقد كان قلبها أعمى.

لم يجد الصبي ابن العاشرة أما يشتكي لها الألم في صدره، والتورم المفاجئ والنتوء الذي يشبه حبات حمص الشام والوجع الغريب، صوته يتغير، يزداد خشونة وغلظة، الزغب الأصفر أسفل بطنه صار أقرب للسواد، خداه الجميلان أصبحا أشبه بعظمتين، كان يتعرض لضغط هائل، عرف الرغبة المحرمة مبكرا، وشاهد ما لم يخطر بباله كطفل بريء.

١٥

فايز ينكمش ويلتصق بالحائط كالبرص تحت الشباك، يبكي بحرقة وحسرة على أبيه المغدور، لكنه يستمتع دون أن يدرك. يضغط جسده في الحائط وتنز قطرات لزجة، اعتاد عليها منذ شهر.

جيهان أرادت أن تطمئن أن الولد مستغرق في النوم، فتحت باب غرفته لم تجده في السرير، وجدت النافذة مفتوحة، والحبل يتدلى،

دب الرعب في قلبها، تقدمت ناحية الشباك ببطء، رآته منكشاً أسفل شباكها والحبل على وسطه كبرص حقيقي موهوب و ضخم، أمسكت الحبل، فكرت في جذبه ليسقط وتتخلص منه، لكنها تراجع، ستتهم بالقتل وتشنق لا محالة، نادته: تعال يا فايز لا تخف.

كأنما عقره كلب فجأة، التفت إليها وقال لها: لا. ستقتلينني، وبكى بحرقة وغلبه الخوف، طمأنته أنها لن تؤذيه، ظلت تحتال له وتقسم وتتكلم بنعومة ومسكنة وهو لا يثق بها، بدأ صبرها ينفد، أمسكت الحبل بقوة وهددته أنها ستسقطه إذا لم يعد إلى الغرفة فوراً، لكنه ظل مرتعباً منها، تمنى أن يبقى هكذا حتى يعود أبوه ويراه، خدعته أنها ستفك الحبل من رجل السرير وتتركه يسقط ويموت، وفي سرعة خاطفة انتقلت من غرفته إلى غرفتها وأسهرت إلى النافذة، فتحت شباك الناموس بسرعة، تدلت بصدرها ومدت يدها وأمسكت فايز من شعره ثم ألصقت وجهه بالحائط وأمسكته من ياقة البيجامة ومن ذراعه ورفعته حتى أدخلته غرفتها، انهالت على وجهه بالصفعات، ظل يبكي ويحاول إبعاد وجهه عن لطماتها ولم يقدر.

كان رقيقاً مرهفاً لا يمكنه دفعها أو ضربها، هددته بالذبح لو أخبر أباه بما رأى، وفي غمرة البكاء والأسى فجر لها مفاجأة مرعبة.

جيهان صعقت وابتلعت ريقها بصعوبة واتسعت عيناها من الذهول، أمسكه من كتفيه بقوة وغرست أظافرها فيهما، فتألم قائلاً: ذراعي .

قالت له بقسوة : احك لي كل ما رأيت.

أخبرها أنه ذات يوم عندما ذهبت لشراء قطعة قماش وحذاء لنفسها بعد العصر، صعد إلى السطح لمداعبة حمام فوزي وإمساكه بين يديه مثلما فعل مرات عديدة بعد أن أصبح صديقاً لفوزي وكلبته فلة وكلبه داغر.

كان الكلب داغر موثقاً بسلسلة تنتهي بحلقة، قام فوزي بربطها حول حنفية خزان مياه السطح، هز داغر ذيله ووقف على قائمته الخلفيتين مرحباً بفايز، أخرج علبة جبنه مثلثات وفض غلاف قطعة جبنه لا فاش كيري وأطعمها ل داغر.

داغر وفلة يعشقان هذه الجبنه التي يشتريها فايز من ادخاره من مصروفه لأجلهما، كان فوزي يبيع أولادهما بعد شهر من الولادة بلا رحمة ولا مبالاة للحزن الذي يصيب فلة لأسابيع طويلة.

عش حمام فوزي كان منصوباً عالياً بأربعة جوانب من عيدان الأخشاب تتقاطع متعكسة كتصميم المشربية، تسمح بالرؤيا ودخول وخروج الهواء، أما سقف العش الخشبي فيبقى مفتوحاً تغلقه شبكة من الخيوط تشبه شبكة صيد الأسماك وهي متحركة يتم إغلاقها وفتحها، وعلى الزوايا الأربعة فخاخ من الأطواق الشبكية يقوم فوزي بإطباقها فوق الحمام الغريب الذي يحط عنده لهائاً وراء إناث الحمام.

سمع فايز أصواتاً تصدر من العشة الصغيرة الصاج الموجودة أسفل
العش الكبير، اقترب واسترق السمع ، بحث عن ثقب ينظر من
خلاله ، رأى سهماً من ضوء الشمس ينبعث من ثقب مرتفع وهي
تميل ناحية الغرب، أحضر قفص طماطم فارغاً، كفاه على وجهه
ووقف فوقه، كان بنطلون فوزي بين قدميه وفلة ممددة على عشة
صغيرة واطئة بها حمام يرقد على البيض.

.....

.....

نزل فايز من السطح وهو يرتعش، فتح شراعة الباب ومد يده وفتح
ودخل، لم يسمع حساً ل جيهان، توجه إلى الحمام واغتسل، دخل
غرفته وجذب الكوفيرتا فوقه ونام.

استمعت جيهان للقصة وهي مذهولة وغازبية، لكنها اكتشفت أنها
ليست الوحيدة التي أغفلت الجميع بل هي أيضاً مغفلة.

رأت علامات الضرب على وجه فايز واضحة، ارتبكت وخافت،
فكت الحبل عن وسطه، أخذته وذهبت إلى الحمام، غسلت وجهه
وكلمته برفق وعقدت صفقة معه: لن تخبر أحداً بما رأيت وأنا
سأكتم سرك اتفقنا؟

هز رأسه وتتهدد.

قالت: سأشتري لك ثياباً جديدة وحذاء ولعباً وشكولاتة وأعطيك مصروفاً أكبر وكمبيوتر أيضاً ما رأيك؟

لكن لم يتحفز للإغراء نظرت في عينيه عن قرب وقالت: ماذا تريد؟

.....

.....

كانت في غاية الاستثارة فقد أصبح الطفل رجلاً وبلغ الحلم مبكراً،
والتمعت في رأسها أفكار شيطانية عن هذا البرص الصغير.

أخذته إلى الحمام وأخذت تستحم بليفة خشنة قاسية، كأنها تتخلص
من نجاسات قديمة وتتهيا لعاشق جديد.

حممته بيديها وقالت لنفسها: قريباً جداً يستطيع هذا البرص الصغير
إطعام هذا الحيوان الأخرس.

انتبهت أن الساعة اقتربت من العاشرة، زوجها على وشك العودة،
ألبست فايز ثياباً نظيفة وأنامته في سريره، أغلقت الشباك وأخذت
الحبل ووضعت في الشرفة. اتفقت معه على عدم البوح بأسرارهما
لأحد ولا لأبيه ولا لزملائه في المدرسة ولا لمدرسته الحسناء مها
التي يذكرها كثيراً، ووعده أنه منذ الغد سيستطيع اللعب على
الكمبيوتر الخاص بها، وستشتري له جهازاً قريباً.

نام فايز المنهك وانتظرت جيهان زوجها وأعدت له الغداء.

استيقظت البلدة على صرخات أم فوزي، جاءت الشرطة والإسعاف والطب البيطري.

كان مشهدُ الجثة مُرعباً، الكلبُ يجلسُ بجوار صديقه وعيناه تمتلئان بالتشفي كالإنسان، تم التحفظ على الكلب وأدخلت الجثة المشرحة. تقرير الطبيب الشرعي قال: الوفاة حدثت بسبب نزيف حاد إثر اقتلاع الأعضاء التناسلية للضحية بسبب تعرضه لعضات كلب وأن الصدمة العصبية أنهت حياة فوزي، الكلب قام بالتمثيل بالجثة بعد الوفاة، عضها في جميع الأماكن ، ففأ عينيه وقضم أنفه.

خرجت البلدة كلها في جنازة فوزي، رغم الصدمة لم تملك جيهان دموعاً كثيرة لتذرفها على عشيقها الميت، وقعت في قلبها رهبة الموعظة لوقت قصير، ربما لثلاثة أيام فقط، كأن الفتى الذي تعشقه لم يُقتل، كانت في أعماقها مشغولة بشيء آخر وعشيق آخر.

الكلبُ القاتلُ تم عرضه على متخصصين، أجروا له فحوصات داء السعار، خبر مصرع فوزي تحت أنياب داغر انتشر بسرعة، القرى المجاورة تتحدث عن الكلب الذي قتل صاحبه من أعضائه التناسلية، ووجدوا فلة ميتة في الملاحات من آثار نزيف حاد بسبب عضات في الرقبة وتمزق كامل للفم، وأثار الدماء على سلم بيت

فوزي وطول الطريق التي سلكته هاربة من مواجهة غير متكافئة مع كلب قتلها بدون رحمة.

الطبيب الشرعي الشاب كان متحمساً لاكتشاف الحقيقة وتتبع خيوط القضية، ولمّا كان لا يمكنه التحرك بحرية استعان بصديقه ضابط المركز الشاب لحل لغز القضية، وبدأت التحريات.

زار الشابان أم فوزي وتحادثا معها، طلبا منها دخول غرفة ابنها والصعود إلى غية الحمام والبحث في أغراضه الخاصة، سأل الضابط أم فوزي: أين هاتف ابنك يا حاجة ؟

قالت: في درج الكوميدنو وأحضرتة وأعطته له وظلت واقفة.

قال لها الطبيب: ألن تصنعي لنا كوبين من الشاي بيديك الجميلتين يا أمي؟

قالت : من عيني يا ابني.

كان فوزي ولدها الوحيد على البنات وكل بنت في بيت زوجها ولا يزرن أمهن إلا على فترات تطول للشهر بسبب تفرقهن وتزوجهن في بلدات وقرى مجاورة، وانشغلت كل امرأة منهن ببيتها وعيالها عن زيارة أمها، كان الجحود والأنانية والنسيان المكافأة الآتمة من أخوات فوزي لأمه.

فتح الضابط الهاتف، أراد الدخول إلى الاستوديو لكن كان الهاتفُ مؤمَّناً برقمٍ سري، أغلق الهاتف واستخرج بطاقة الميموري كارد ووضعها في هاتفه فلم تفتح أيضاً، قال للطبيب: نحتاج مهندساً للحصول على الرقم السري. ثم قام بتشغيل الكمبيوتر وتفحص ملفاته ، أظهر الملفات المخفية، بدأ يتصفح ويشاهد صوراً ومقاطع فيديو ، أخرج الطبيب من جيبه مئتي جنيه ودسهم في يد أم فوزي وهو يصافحها بلطف بعد أن وضعت صينية الشاي على الطاولة، شعرت بخجل قالت: مستورة يا ابني الحمد لله، فوزي هو الذي كان يرعاني، لكن ربنا اختاره. وانهارت في البكاء والعويل فضمها الطبيب وقبل رأسها وطيب خاطرها قائلاً: كلنا أولادك يا أمي وإذا احتجت شيئاً رقبتي سداة وسوف أطل عليك للاطمئنان كلما استطعت وهذا كارت فيه رقم تلفوني.

كان الضابط يقف متوتراً متأففاً يريد الانصراف، استأذن الطبيب وأخبر أم فوزي أنهما سيعيدان الهاتف وكيسة الكمبيوتر بمجرد إغلاق القضية.

عند تفريغ الصور والفيديوهات لم تكن جيهان وحدها هي البطلة، فقد كان فوزي على علاقة حميمة بنساء أخريات من نفس القرية.

كان يسجل محادثات الفيديو ويلتقط الصور بالهاتف لأي امرأة أو فتاة يتعرف عليها، وكانت المسكينات يثقن به ثقة عمياء ولم يخطر ببالهن أنه يمتلك هذا الأرشيف الذي سيجلب لهن الفضيحة.

تم التعرف على النساء عن طريق شيخ البلد الذي استعان بكوافيرة العزبة، تم استئذان النيابة العامة وتم القبض على جيهان وغريماتها في عشق فوزي، الاستدعاء تم بحجة وجود قضايا عوائد ونظافة، وتحت هذا الغطاء تم استدعاء النسوة، وسط ذهول الأقارب فلا توجد أي أوراق رسمية بأسماء النساء عادة.

كان وكيل النيابة والطبيب والضابط يتلهفون لمعرفة الحقيقة ولماذا قتل الكلب صديقه ومزق أعضائه، كان لغزاً محيراً وفكر الطبيب في الاستعانة بخبير كلاب شعبي، بعيداً عن الخبراء الأكاديميين، ولما تم له الأمر أحضروا له خبير كلاب، حكى له الطبيب أن الكلب قتل صاحبه من المحاشم، وقتل رفيقته أيضاً، طلب الخبير إحضار كلبة سوداء ك فلة، ثم قاموا بإدخال الكلبة إلى داغر بعد تقييده وربط السلسلة في حديد أحد الأسرعة بعنبر فارغ، عندما شاهدها داغر أصابته حالة جنونية وأخذ يتقافز وينبح ويزمجر ويشخر محاولاً قطع السلسلة والفتك بها، كان شرساً ومتوحشاً فأخرجوها وانصرفوا إلى مكتب الطبيب، سرح عصام خبير الكلاب وأخذ نفساً عميقاً من سيجارته وقال للطبيب: هذا الكلب كان يعيش في مكان واحد مع كلبة عند الشاب الذي مات ؟

أجاب الطبيب: نعم ووجدناها مقتولة أيضاً. فيما تفكر؟

قال عصام : العلم عند الله من الممكن أن يكون الشاب المقتول كان مع الكلبة والكلب رآه ..

كان الطبيب يعرف أن جدار الرحم يحتفظ ببصمة وراثية لكل زوج أو عشيق، لكن هذا في البشر ويحتاج تقنيات غير موجودة في مصر.

انصرف الطبيب في حالة قرف واستياء كبير، وقد بدا مرتاحاً للنتيجة المفجعة.

شكر الطبيب الخبير الشعبي عصام وأعطاه مائة جنيه كشكر على الاستشارة وإفادته الخيرة.

كانت الحيرة والجدل تدور حول رأيين، إعدام الكلب بدون تأخر، أو تركه يعيش؟

تبادل الطبيب المعلومة مع الضابط ووكيل النيابة وجلسوا معاً يتفحصون الصور والفيديوهات على هاتف فوزي ثم استدعوا جيهان للاستجواب.

عندما دخلت الحجرة بصحبة عسكري النيابة انبهر الطبيب بتفاصيلها ووكيل النيابة أيضاً.

نظر الضابط إليهما قائلاً : أخبرتكما ولم تصدقا.

- اسمك بالكامل.

- جيهان رجب كامل المظلوم.

- سنك؟

- ٣٥ سنة.

- مهنتك؟

- لا أعمل.

- متزوجة ؟

- نعم زوجي كارم خليل رضوان الفار.

- ما مدى معرفتك ببارك المدعو فوزي عبد المنعم جبر؟

- جارنا يا باشا، البيت في البيت، أمه امرأة طيبة، وهو كان شاباً طيباً وابن حلال.

- هل كانت بينكما أي علاقة؟

ارتبكت جيهان وظهر عليها التوتر وأحست أن الهواء يتقلص فجأة في المكتب، انتبهت الآن أن أربعة رجال يجلسون أمامها، وأدركت أن هناك حفلة على شرفها.

نظرت في عيني وكيل النيابة الماكرتين وشاهدت البريق الواصل، واهتمام الطبيب بكل حرف تنطق به، والضابط الذي يضع ساقاً فوق الأخرى، والكاتب المنكفي على دفتر القضايا يدون كل شيء، تنفست وزفرت وبهدوء قالت: ليس بيننا أي شيء.

أدار وكيل النيابة شاشة الكمبيوتر قائلاً: هذه صورتك؟

جيهان لم تكن تعلم أن فوزي يحتفظ بصورها وفيديوهاتنا على الكمبيوتر وأنه سيسبب لها فضيحة بعد وفاته، أفاقت على صوت المحقق مكرراً، هذه الصور صورك يا هانم؟

هزت رأسها بالإيجاب وبكت وانتحبت، قام الطبيب وأجلسها مكانه وأعطاه منديلاً، وحاول تهدئتها وأحضروا لها ليمونا، وبدأت تحكي قصتها مع القتل.

"تعرفت على فوزي أثناء انتظاري لقضاء العدة في بيتهم، فقد قبلت أمه استضافتي لأجل كارم زوجي، وحدث بيننا استلطف وانسجام رغم صغر سنه، لكن لم تأت الفرصة لأقترب منه، أعدت تنظيف عشش الفراخ والبط، اشتريت كتاكيت وبطاط صغيرة، بدأت في تربية الفراخ على سطحنا، أصعد كل يوم بعد العصر وأنزل قبل المغرب، أضع لها الماء والسّمك وكسر الأرز في الصباح وعند المغرب، فوزي كان يقف على السور الملاصق لسطحنا، كان أعلى من بيتنا قليلاً، يستمتع بالنظر وأنا أتحرك وأنحني وأنظف.

عندما كنت ضيفة في بيتهم أنشأ لي حساباً على فيس بوك وإيميل على ياهو وعلمني كيف نتواصل على الكاميرا، وبعد زواجي من كارم بأسبوع فاجأني فوزي وعبر من سطحهم إلى سطحنا، كنت مرتعبة أن يشاهدنا أحد لكنه كان ينزل بعد عتمة المغرب.

لقاؤنا الأول كان في عشة الفراخ، وتكررت اللقاءات بيننا، ثم
تجرأنا على الالتقاء في بيتي عندما يكون زوجي في المطعم أبقى
مع فوزي ساعتين تقريباً.

تدخل الضابط مندهشاً: ساعتان لمدة خمسة أعوام!

نكست رأسها ولم تتكلم.

سألها وكيل النيابة كيف تتصرف مع فايز فأخبرته أنها تغلق غرفته
عليه من الخارج.

نظروا لها بقرف وسألها مجدداً

- هل لديك فكرة أن الكلب قتل فوزي باقتلاع محاشمه ؟

- نعم عرفت. البلد كلها تعرف ذلك.

- برأيك ما السبب؟

صمتت جيهان وشربت عصير الليمون، تنهدت وقالت: لا أعرف
وانهارت في بكاء هستيري ولم تجرؤ أن تحكي أن الكلب انتقم من
صاحبه تأراً لشرفه.

بدأت تنوح، لم تكن تعرف ماذا تفعل ولا ماذا تقول، تم إغلاق
المحضر وتحويلها إلى المستشفى لإجراء الفحوصات مع غريمتها
في العشق الحرام.

كانت الفيديوهات والصور حلاً لكل شباب البلدة وتم تسريبها على نطاق ضيق وعلى مستوى عال لم يصل إلى البسطاء رغم وصول الفيديوهات لتجار أسماك وأصحاب مزارع سمكية.

رغم التكتّم وعدم إثارة الشرطة لأي بلبلّة للرأي العام، وتدخل تجار كبار لدفن هذه القضية الخطيرة، انكشف المستور.

أحد الشبان طعن زوجته عشرات الطعنات ومزق جسدها وأصابته حالة صراخ وهياج وهو يطعنّها في رحمها على بعد خطوات من باب قسم الشرطة وهو يرفع رأسه مفتخراً: ذبحت الفاجرة وغسلت العار. ولم يستطع أحد القبض عليه إلا باستخدام العصا الكهربائية.

زوج جيهان لم يحتمل الصدمة، أخبروه أن زوجته كانت متورطة في علاقة محرمة كاملة الأركان، منذ الأسبوع الأول وخلال خمسة أعوام، كان صامتاً مذهولاً لا يصل أذنيه من كلمات وكيل النيابة أي حرف، لم يستطع أن يغفر لها ويتنازل عن قضية الزنا الثابتة بأفلام صريحة بينها وبين فوزي، أحس باختناق بعد يوم شاق ومرهق، لم يستطع قلبه الاحتمال، تهاوى على المقعد أمام مكتب وكيل النيابة، وضع رأسه على المكتب وسكن، حاولوا إسعافه وإنعاش قلبه بتدليك صدره، اتصلوا بالإسعاف، نقلوه إلى المستشفى مفارقاً للحياة بسكتة قلبية.

الجيران اتصلوا بالحاج مدحت الطواهرجي، أخرج جثة كارم من مشرحة المستشفى بعد إجراء اتصالات بمسؤولين كبار وتكفل بمصاريف الجنازة والدفن والعزاء.

في المساء جمع فايز ملابسه وحقيبته المدرسية كما أمره الحاج مدحت، وأغلقت الشقة والبيت بالأقفال والسلاسل وأخذ الحاج ابن صديقه معه إلى مدينة البو غاز، لكن الفضيحة أصبحت مجلجلة.

الناس يضربون كفا بكف في حيرة واستياء، مدرس التاريخ الأستاذ إبراهيم المشد، استأذن من شيخ المسجد الكبير بعد صلاة العصر وألقى خطبة عصماء، أن الله الرحيم بالعباد سترهم وستر ذنوبهم وخطاياهم، وأنه لا يمكن إثبات جريمة الزنا إلا باعتراف صاحبها، أو بشهادة أربعة أشخاص أنقياء سمعتهم طيبة وأخلاقهم كالذهب، وأن التكنولوجيا الحديثة التي سخرها الله للناس، تستخدم الآن أسوأ استغلال، وبعد أن كان ستر الله مسدلاً على الخلق جاءت الفيديوهات والصور لتهدم الستر.

وطلب منهم أن يجدوا في قصة فوزي العبرة والعظات، ودعا وردد الناس خلفه حتى البكاء: اللهم استرنا فوق الأرض وتحت الأرض ويوم العرض عليك.

مكث فايز أربعة أعوام في شقة فارغة في منزل الطواهرجي ثم بدت عليه بوضوح علامات الرجولة، فأخلى له الحاج مدحت شقة سكنية كتبها باسمه في عمارته الجديدة، القريبة من منزل الحاج الذي يطل على النيل، اشتراها له بثمن نصف البيت الذي كان يعيش فيه مع أبيه وجيهان بعد أن سلمها الحاج مدحت حصتها من النقود، وتم إيداعها أمانات السجن بعد إتمام إجراءات البيع والتوثيق ودفع أتعاب المحامي الذي يملك توكيلاً من جيهان منذ مشاكل أزواجها السابقين.

آخر مرة رأى فايز غرفته في بيت أبيه يوم أخذ كتبه وكراساته وعلبة الألوان والصفحات التي رسم عليها بحاراً وجبالاً وفراشات وحماماً وكلاباً وأشجاراً وعصافير.

تحسنت صحة فايز وزاد طوله، أصبح يملك صوت رجل وظلال شارب تحت أنفه، تعلم فرز الأسماك من الجمبري والحبار والكالمار والكابوريا، حفظ أسماء الأسماك وأنواعها وأماكن وطرق صيدها، أصبح خبيراً في أسماك البحر الأبيض التي تباع في أسواق مدينة الفنار ومدن الساحل كالإسكندرية ورشيد والبرلس ودمياط وبورسعيد والعريش ومطروح والسلوم، ظل لفترة يختلط عليه الأمر، الآن يعرف أسماك الطبقة الأولى في السوق، أسماك موسى والقاروس والوقار والدنيس والمياس والبربوني والشفش واللوت

والهليلي والسهيلي والسياحي وأسماك الطبقة الثانية الدراك والسيف
والبطاطا والباغة والجمال والصاج والموزة والمكرونة وأسماك
الطبقة الثالثة البوري والحفار والبلطي وستة أكتوبر والسردين والمما
كريل والبلا ميطا والشك والتونة، وبلح البحر واليكلويز وأم الخلول
وملك المياه العذبة الحنشان والشال.

كان أميناً وحريصاً ومنتبهاً ويقظاً، أحبه الحاج مدحت كابين، يأكل
معهم في البيت وينام في شقة في الدور الأعلى.

الحاج مدحت يزوج اليتيمات ويكفل الأيتام والأرامل ويصرف
مرتبات شهرية لعشرات الأسر الفقيرة.

تحدث الحاج مدحت مع زوجته وباركت الفكرة فقد أحببت فايز
وكذلك أحبته ابنتها منى وتعلقت به، فلم تكن تأكل أي شيء إلا
وتخفي ل فايز جزء ونصيبا منه، فتعطيه قطع شكولاتة وحلوى
ولب وسوداني، كانت منى في السابعة وفايز في العاشرة عند اللقاء
الأول، هي آخر العنقود أنجبها الحاج على كبر، وكانت ريحانة بيت
أبيها، خاصة أنها تعرج عرجاً طفيفاً، وبعينها حول جمال وسمراء
ونحيلة ومتواضعة الجمال، لكن ثروات أبيها كانت تكفل لها أن
يراها الرجال ملكة جمال الكون لكل السنوات.

كان فايز ولداً ناضجاً عقله أكبر من حجمه وسنوات عمره، وكان
يعرف أن الذكريات المحفورة في عقله عن بيتهم وجيهان وأبيه
وفوزي ستظل تطارده للأبد، لكنه كان يريد أن يعرف ماذا حدث

لجيهان، كان مشتاقاً ليشمم رائحتها وتقبيلها، كانت تتنفس تحت جلده طوال الوقت، دون أن يستطيع كتم هذه الأنفاس وتجاهل هذه الأحلام العارمة، رغم كل مرات فشله الذريع لكي يكون رجلها لدقيقة واحدة.

فايز ومنى الصغيرة، يذهبان معاً إلى المدرسة ويستذكران الدروس معاً بعدما يعود من المخزن بعد العشاء، كان فايز يخاف على منى ويغار عليها ويحبها كأخت، رغم جمالها المتواضع وعرجها الخفيف.

كان قلبه تعلق بسميحة منذ أول نظرة ولم يستطع إبعادها عن تفكيره وخياله، كان يشعر أن سميحة هي جيهان وقد عادت طفلة صغيرة لأجله هو.

عندما بلغت منى، وأصبحت تعرف العادة القمرية، تقلصت الجلسات بين الولد والبنت بناء على رغبة الحاجة، كانت تتضج وتستوي ويستدير جسدها وقوامها، صارت مهرة جميلة وظل فايز على هيئته قصيراً نحيلاً سنوات عمره أكبر كثيراً من شكله رغم ذكائه ورجولته وتحمله المسؤولية، قالوا له: أن الرجال لا تطول قاماتهم بعد البلوغ، لكن كان لديه أمل قوي أن طوله سيتغير وجسده سيتفتح كعباد الشمس رغم بلوغه الحلم مبكراً في العاشرة.

كان فايز يتعرض لمضايقات وأحقاد وغيرة في مخزن الأسماك من بعض العمال بسبب محبة الحاج مدحت له، ولأنه كان عين وسمع

الحاج، يكشف السرقات واللصوص الذين يأكلون من خير الحاج وينهبونه نهباً، كان ابن مدارس بين أقرانه المتسربين من المدارس، يشعرون بتميزه وذكائه، وتمتلاً قلوبهم حقداً عليه، فهو يزاحمهم في العمل ببراعة ويتفوق عليهم كتلميذ نابه يحصد الجوائز والميداليات والدرجات المتميزة، كان أفضل منهم حظاً وكانوا يكرهونه بدون وعي.

ذات مرة كان العمال يفرغون إحدى المراكب وكانت عامرة برزق البحر، وكانت الطاولات الخشبية ممثلة بالكابوريا، ولم تعد حية، والكابوريا كسرطان البحر لها كلابان قويان، أحد العمال يسرق بإسقاط واحدة أو اثنتين في (عبه) ما بين الفانيلا الحمالة وجلد بطنه، انغرس المنقار المدبب لفك الكابوريا في لحمه بالصدفة فتوهم الحمال أن الكابوريا حية وبدأت تعضه فأخذ يصرخ ويتلوى وأسقط الطاولة وافتضح أمره.

كان العمال يبتكرون الوسائل للسرقة وكان فايز يكشفهم وقد تسبب ذلك في عدااء وكراهية للولد الغريب الغامض الذي لا أحد يعرف عن قصته شيئاً، فقد أمره الحاج مدحت ألا يخبر أحداً باسم أبيه ولا بما حدث في قرية الملح.

نشأت علاقة حميمة بين فايز وعم يعقوب الرجل الأرمل مسؤول الحسابات في المخزن، عاشق الثقافة والكتب، كان بمثابة الأب

الحنون والمعلم له، يخفف عنه أحزان وحدته، ويصحبه معه إلى المقهى ويلعبان معا أدوارا رائعة من الشطرنج.

كان يخبره أن الحصان يستطيع فعل الكثير على رقعة الشطرنج، والمآزق التي يصنعها الحصان للملك لا يمكن الإفلات منها بسهولة، كان يعلمه الهدوء والصبر والتعامل بذكاء مع العمال من نفس عمره الذين يحترقون حقداً وحسداً بسبب محبة الطواهرجي وزوجته له وتعلق منى الصغيرة به.

علمه حب القراءة والكتب والإخلاص في مراجعة دروسه والصدق دائماً مهما كان الثمن، كان يقول له: إذا كذب الولد سرق وإذا سرق قتل، وإذا أدمنت الفتاة الكذب فرطت في أغلى ما لديها.

كان يشاهد عدة الصيد لدى العم يعقوب، وطلب منه كثيراً أن يصحبه معه إلى البحر، وعندما أذن الطواهرجي لعم يعقوب باصطحابه، علمه صيد البلطي في النيل، كان يشاهد أسطول الصيد من المراكب الكبيرة تشق النهر باتجاه البو غاز وتخرج إلى البحر المفتوح، ولما ألح على العم يعقوب أن يصحبه في رحلة صيد في البحر وعده أن يعلمه الصيد في البحر كما علمه الصيد في النهر، لكن لا بد من توفير بوصة مجهزة وماكينات وأدوات أخرى وليس مجرد بوصة بسيطة كما هو الحال في صيد البلطي.

بدأ الادخار واشترى له يعقوب بوصة وماكينات وخيوطاً، علمه كيف يحتفظ بالجمبري حياً من أجل الصيد، كيف يستخدم قطع الحبار

والمحار كطعوم للأسماك، وكذلك ثعبان البحر الصغير الأنقليس أفضل طعم لصيد الأسماك الكبيرة من الوقار واللوت بالإضافة لاستخدام أسماك البوري الصغيرة الحية كطعوم.

كانت أول رحلة له إلى البحر المفتوح مع عم يعقوب أول فرحة حقيقية يعيشها في عمره الصغير.

أجلسه يعقوب على صخرة آمنة مستوية، علمه فتح البوصة، وكيفية تعليق الجمبري الحي في السنارة، وطريقة الإلقاء، وجد الولد صعوبة كبيرة في قذف الطعم إلى الماء، فشل وجرب، وفشل وجرب، حتى تعبت يداه من إحلال السنارة والخيط بعد أن تلتف حول البوصة وتتعدّد، ويعقوب يضحك ويحفزه ويدفعه للاعتماد على نفسه وتكرار المحاولات حتى أفلح بعد عناء وجهد وتركيز.

السكة الأولى له كانت سمكة لوت، أغرقت الغمارة وابتلعت الطعم ثم جذبت البوصة من يده فصرخ فرحاً وتعلق بكل قوته بالبوصة وارتبك واستغاث.

عم يعقوب : الحقنى

بكل هدوء وثقة ظل يرشده للتعامل مع السمكة، ارفع مقدمة البوصة لأعلى، امسك ذراع الماكينة، لف الخيط ببطء، حول مقدمة البوصة لليمين عكس اتجاه انحراف السمكة، ببطء وهدوء، لا تتفعل، كن بارداً، نعم .. هكذا .. أحسنت.

ولما رأى فايز السمكة منهارة على صفحة الماء وانقلبت بطنها
للسماء، سألها ماذا أفعل الآن ؟

عندئذ قام يعقوب واستخدم الطوق المجهز لانتشال السمكة من الماء
وأبعدها عن الشاطئ، ظل يتقافز من الفرحه والسعادة وأحس بجمال
الحياة وروعة البحر وعانق عم يعقوب وأحس أن أباه لم يمت.

وكما علمه الشطرنج وفهم الحياة وحب البحر وصيد السمك علمه
كيف يطهو الأسماك التي يصطادها وكانا يطبخان الأسماك
ويأكلانها معاً في أجواء احتفالية مبهجة.

كان يسيران معا ويظهران معا كأب وابن، حتى اقترب يعقوب من
شبية الستين وفايز من فوران العشرين، كان يعلمه الحقيقة ويبصره
بخفايا النفس البشرية، وأسرارها.

النَّاسُ لَا يُحِبُّونَ الْفُقَرَاءَ وَلَا يَحْتَرُمُونَ الضَّعِيفَ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا بُدَّ
أَنْ يَكُونَ كَبِيرًا مِنْ الدَّخْلِ ، عَفِيفَ النَّفْسِ، لَا يَتَخَلَّى عَنْ اعْتِرَازِهِ
بِنَفْسِهِ، وَلَا يَقْبَلُ الْهَوَانَ، وَلَا يُلَطِّخُ شَرَفَهُ ، وَأَنَّ كَرَامَةَ الْإِنْسَانِ هِيَ
قُدْسُ أَقْدَاسِهِ كَدْرَعِهِ الْوَاقِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْكَسَرَ أَبَدًا ، وَأَنَّ الرَّبَّ
رَحِيمٌ دَائِمًا وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَلَّا يَتَوَقَّفَ أَبَدًا عَنْ مَحَبَةِ اللَّهِ.

كان فايز يرغب دائماً أن يقرأ في الكتاب المقدس وكان يعقوب
يخبره أنه لم يحن الوقت لذلك بعد، وكان يشجعه على محبة الصلاة
وقراءة القرآن ويخبره أن الله الواحد خالق المحبة وصانع الجمال

وبارئ الكون والكائنات قريب دائماً وفي كل وقت وكلما طلب منه أن يعلمه آيات من الكتاب المقدس يسمعه آية واحدة (للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد).

مرت الأعوام، صار فايز شاباً رائعاً متوسط الطول وجذاباً وتلمع عيناه ببريق غامض وذكاء متوهج، وثقافة واسعة، التحق بكلية التجارة، ووطئت قدماه بر الأمان وفقد صديقه الوحيد عم يعقوب.

منى استدارت وزادت جمالاً وأنوثة وجاذبية وأشعلت قلوب الشباب في المخزن بخفة دمها وتواضعها وتفصيلها المتناغمة فقد زاده العرج الطفيف أنوثة على أنوثتها وحول عينيها الخفيف كان سبب وقوع العشرات في غرامها من أول نظرة، كان الكل يتمنى الزواج من منى الطواهرجي الطالبة الجامعية في كلية الصيدلة، مستنكرين أن تكون من نصيب اليتيم اللاجئ كما يصفه الجميع، العامل الأجير لدى الحاج الذي لا يملك أي شيء إلا شقيقته وعمله ومستقبله الذي لا يعرف أحد ملامحه.

١٨

اتفق الثلاثة على تدبير مكيدة تكفي لقطع عيشه، فالعم يعقوب حصن أمان فايز قد رحل وصار الآن صيداً سهلاً، فبعد أن انتهوا من العمل أصرّوا على دعوته للعشاء، حاول أن يعتذر لكنهم

أصروا بالحاح واستماتة، أحمد وخالد ومجدى، كان العشاء سمك بورى مبطرخ مملح، وضعوا أمامه سمكة كبيرة، أحضروا خبزاً وبصلاً وليموناً وجلسوا على المقهى المطلة على البحر، في الهواء المنعش بدأ الأربعة في نهش الفسيخ اللذيذ والبطارخ، كانوا معتادين على تناول العشاء فسيخاً طوال حياتهم، لكن المسكين المتلفه للفسيخ والبطارخ لم يشعر بنفسه ولم يقاوم حلاوة السمكة، فتحها من ظهرها كما شاهدتهم يفعلون ومرر السكين حتى شقها تماماً وفتحها كدرفتي الباب، ظهر البطروخان ممدين بارزين بلون المانجو، عصر ليمونتين، بدأ في غمس لقيمات الخبز في لحم الفسيخة، كان لحمها كالمرهم، سألهم لماذا لحم الفسيخة كالكريم؟

رد خالد باستعلاء: هذا السمك بدقة صفراء ذهبية لا يراه إلا صفوة الناس، أكل الباشاوات فقط.

أدرك أنه سيظل يتعلم ويعرف معلومات جديدة كل يوم جديد، وأن هناك أسراراً كثيرة لا يعلمها، ورغم أنه تناول معهم أسماك الفسيخ كثيراً خصوصاً يوم شم النسيم، إلا أن هذه هي المرة الأولى التي يأكل فيها الفسيخ في الليل، وبهذا الحجم، وبالبطارخ.

ظل يأكل بشراهة، التهم البطروخين وأتى على لحم السمكة تماماً فلم يترك إلا جلدها ورأسها ومصمص سلسلة الظهر باستمتاع واستغراق كما رآهم يفعلون، وضعوا أمامه بصلاً كثيراً وخبزاً، شرب سفن آب وبيرة وشاي، أسقطوا له فيه حبة حمراء، شرب

زجاجة ماء، تجشأ وتقافز في المكان، كان يشعر بصدرة يضيق ويضيق وأنفاسه تتباطأ، أوصلوه إلى شقته وهو يشعر باشتعال حريق في وجهه ورأسه وأنفاسه، تركوه وذهبوا إلى بيوتهم واتفقوا على إكمال المؤامرة في الصباح.

مجدي أكد لهم أن فايز لن يستطيع أن يسرح في الصباح كالمعتاد، ولن يستطيع أن يستيقظ لأنه سيعيش ليلة مرعبة ستمنعه من المجيء للعمل يومين أو أكثر، وقال ل أحمد: هل هاتف فايز معك؟

- نعم. سرقة ونحن نصب الماء على يديه ليغتسل والبيرة أداخته ونسيه معي.

- اضبطه على الوضع صامت. وإياك أن ترد على أحد.

- تمام يا معلم مجدي.

وقال مجدي لخالد: عندما تذهب إليه غداً بحجة أنه تأخر وتتأكد أنه متعب ومريض ولا يستطيع الحركة عليك أن تتصل بالدكتورة منى وتخبرها أن فايز مريض جداً ولم يخرج من شقته بسبب أكلة فسيخ.

- فهمت ماذا ستفعل يا خالد؟

- اطمئن يا مجدي فهمت. سيحدث ما نريده اطمئن.

- طيب. سوف نرى.

في الصباح تخطت الساعة العاشرة ولم يمر فايز بالمخزن قبل
ذهابه إلى الكلية كعادته ولم يرد على هاتفه المحمول، وظلت منى
حائرة قلقة طوال الليل وفي الصباح أيضاً.

سأل الحاج مدحت ألم ينزل فايز اليوم؟ قالوا: لم يسرح.

قال الحاج: غريبة ! هذه أول مرة يتأخر منذ عمل معنا.

والأغرب هاتفه لا يجيب.

- اذهب إلي شقيقه يا خالد لنعرف ماذا أخره.

- حاضر يا حاج.

أسرع خالد وصعد العمارة وطرق الباب مرات ومرات، قام فايز
من نوم ثقيل جداً يجر قدميه وفتح الباب، دخل خالد وقال: صح
النوم قلقنا عليك والحاج يريد أن يطمئن عليك أنت بخير؟

- الحمد لله بخير لكن أشعر بدوار طفيف وعظامي متكسرة كسلاً
ولست على طبيعتي وحيويتي.

- طيب يا ريس فايز خذ حماماً منعشاً واستفق ننتظرك في
المخزن.

أنا سأذهب لتيسير الشغل لأن الحاج ذهب إلى بورسعيد وعلينا سد
غيبته وتطويل رقبته، ابق اليوم معنا لا تذهب للكلية، سلام.

- ذهب إلى بورسعيد؟ متى؟ لم يخبرني.

- ذهب اليوم، لا تتأخر سلام.

نزل خالد مهرولاً على السلالم أخرج المحمول واتصل بمنى.

- آلو.. صباح الخير يا دكتورة منى. أنا خالد.

- صباح النور.. خيراً يا خالد هل أبي بخير؟

- نعم بخير الحمد لله، لكن الرئيس فايز مريض جداً.

- فإاااااا ايز.. ماذا حدث له؟ أفهمني يا خالد؟

- والله.. يا ست الكل.. لا أعرف ماذا أقول لك. أكلنا سمك فسيخ بالليل وكان مبطرخاً وأسرفنا في الأكل، وفايز لم يذهب إلى الكلية ولم يحضر إلى المخزن ومريض جداً ولا أعرف كيف أتصرف، أتصل بالإسعاف؟

منى أغلقت الهاتف في وجه خالد، نزلت سلم البيت بسرعة، وانطلقت. ركضت لمسافة مائة متر كالمخبولة، صعدت سلم العمارة التي يسكنها فايز لاهثة، طرقت الباب بقوة، لم يفتح، طرقت أقوى وأقوى ورنّت جرس الباب، وهي تكرر الاتصال به دون أن تتلقى أي رد، خرج من تحت الدش متوتراً، لفّ المنشفة حول وسطه وهرع إلى الباب.. فتحه.. فوجد منى أمامه، ارتمت في حضنه منهارة : أقلقنتني عليك يا فايز. هل أنت بخير، ماذا حدث؟

كان في حالة ذهول تامة، هو شبه عار وهي في حضنه، سمعا أصوات أقدام جيران في العمارة تهبط السلم فأغلقت منى الباب برفق، ظلت مرتمية في حضن حبيبها الذي لم يقترب منها هكذا من قبل، وضع كفيه على خديها ونظر في عينيها فرحاً وهو لا يصدق جمال اللحظة، كان مشتتاً بين حبه البارد لسميحة وبين منى التي تعشقه حتى الذوبان فيه.

وقفت على أطراف أصابعها وانحنى لها بعد سنوات طويلة من الكبت.

أكمل خالد الوشاية وأخبر الحاج أنه شاهد الدكتورة منى تدخل مهرولة إلى العمارة التي يسكن بها فايز وأنه رآها بعينه تصعد السلالم.

صفع الحاج مدحت خالد على وجهه بظهر يده بقوة فأصابته الخواتم الذهبية في أصابع الحاج بجراح ونزفت الدماء من شفتيه، لم يتكلم الحاج نصف كلمة، كان مجدي وأحمد يشاهدان في صمت، وقف الحاج متحيراً للحظة واتجه نحو العمارة التي يسكن بها فايز وهو شارد الذهن.

هرول مجدي إلى خالد وقال له: برافو عليك، ينصر دينك أنت شيطان .

لكن خالد لم ينطق ولم يكن متفائلاً، كان مرتعباً أن تصاب منى بأذى، إنه بكل أسى ومرارة يحبها أكثر من أي شيء في هذا العالم.

الحاج مدحت صعد السلم كذئب جريح وآلاف الخيالات تدور في رأسه وعيناه متعكرتان بالدم، لم يحدث من قبل أن رأى يديه ترتجفان هكذا، أشعل سيجارة مارلبورو ليشعر قليلاً بالاتزان، طرق الباب برفق وهدوء أعصاب، لا يريد لفت انتباه الجيران وصنع فضيحة لنفسه وابنته.

انخلع قلب منى وهي ذائبة في حزن فايز وكأنها سقطت من برج سكني، قالت بكل يقين : بابا.

في غمرة العناق والقبلات كانت المنشفة على الأرض وفايز كيوم ولدته أمه.

لا يجد وقتاً لارتداء ملابسه وطرقات الحاج على الباب والجرس تزداد إلحاحاً وقوة.

تمنى أن تسقط العمارة فوق رأسه ويموت، كانت منى منهارة تماماً وتقف متجمدة كعمود رخام، قفز إلى غرفته وارتدى جلباباً أسود بسرعة وتوجه إلى الباب بخطوات مرتعشة وفتح الباب.

صفعه الحاج مدحت أربع صفعات متتاليات، لم ينطق فايز بكلمة أو يرفع عينيه في عين الحاج مدحت، قالت منى: لم يحدث بيننا أي شيء يا بابا، ووقفت حائلاً بين أبيها وبين حبيبها، صفعها هي

الأخرى فسقطت على الأرض وانكفاً عليها فايز ليحميها بجسده وأقسم للحاج أنه لم يحدث شيء وأنه لا يعرف سبب مجيئها ولا مجيء الحاج مدحت، في هذه اللحظة أخرجت هاتفها وفتحت سجل المكالمات المسجلة وأعطت الهاتف لأبيها قائلة: بابا من فضلك اسمع هذه المكالمات وتوصلت إليه باستعطاف وهي تبكي، وعلامات أصابعه على وجهها كسياط من نار.

عندما تكشفت الحقائق أمام الحاج جلس على الكنبه في الصالة، وقال موجهاً كلماته ل فايز: هل تحب منى يا ولد يا فايز؟

وضع فايز وجهه في الأرض ولم ينطق، زعق فيه الحاج سائلاً: تحبها أم لا يا ولد انطق؟

- أحبها يا حاج وجلس على الأرض وقبل يد الحاج.

- وأنت يا مقصوفة الرقبة ما الذي جاء بك ملهوفة مجنونة هل خفت على حبيب القلب؟ تريدينه يا بنت؟

- افعل ما تراه يا أبي الأمر أمرك وزحفت وقبلت اليد الأخرى.

وضع الحاج مدحت راحتيه على رأسيهما وقال: مبروك يا ولاد، اصحبي عريسك واذهبا لاختيار الذهب الذي يعجبك، ثم ترجعان معاً إلى البيت ، غداؤنا اليوم فسيخ مبطرخ.

كان مجدي وخالد وأحمد ينتظرون طرد وقطع عيش فايز ولكن الذي جرى أن الحاج علقهم على الباب وجلدهم وهم عراة إلا من السراويل القطنية الداخلية لستر العورة، ثم طردهم كالكلاب.

أقيمت البوابات والزينة وتم تحديد فرح فايز ومنى بعد شهر من حادثة الفسيخ، الحاج مدحت يثق في تربية ابنته وعفتها، لكنه يعرف أن الحب أكثر خطراً وحرية من كل التقاليد والأعراف، وتزويج العاشقين هو طريق السلامة لقطع الشكوك والهواجس عما حدث بينهما في الشقة صباح ذلك اليوم، فالبنت ذهبت إليه كالمجنونة والحاج مدحت تنتقل وسافر عبر البلاد ويعرف جبروت العشق وجنون المحبين.

حصل مجدي على بندقية خرطوش وأربع طلقات بمبلغ صغير جداً، حيث احترفت بعض ورش الحدادة صناعة هذا السلاح القاتل، ومع توفر الطلقات أصبح من السهل بمبلغ صغير الحصول على أداة قتل خطيرة.

قرر أن يتخلص من فايز والحاج مدحت، فقد ضاعت كل أحلامه في ثروة الحاج الهائلة، هو لم يحب منى ولم يحب أحداً ولم يحب نفسه، لكنه كان يعتقد أنه صاحب حق في جسدها وثروات أبيها فقد خدمهم كالعبد وخدم أباهما خمسة وعشرين عاماً ثم ظهر فايز وحطم أحلامه كلها، كان يشتهيها كما يشتهي أي ذئب أي فريسة.

حدد مجدي ليلة الفرح لتكون ليلة سوداء على الجميع، كان حقه كله منصّباً على فايز الغريب الذي سرق الفرحة من قلبه إلى الأبد وتسبب في طرده وإهانته وقطع عيشه بعد كل هذه السنين، حاول اجتذاب خالد وأحمد لكنهما رفضا الفكرة الإجرامية من الأساس، فقرر استهداف فايز فقط.

في يوم الفرح وقف مجدي على ناصية العمارة مستفيداً من المطر والطقس البارد، ظل كامناً منتظراً نزول العريس من شقته ليصحب عروسه من الكوافير ثم إلى أستوديو التصوير ثم قاعة الاحتفال بنادي الشرطة بالضفة الأخرى من النيل، عندما ظهرت السيارة المرسيديس السوداء المزينة بالورد وشرائط النايلون اللامعة، أخذ سائق الحاج يطلق آلات التنبيه، فرحاً بالليلة العظيمة وبمجرد ظهور العريس خارجاً من مدخل العمارة أطلق مجدي الخرطوش باتجاهه من مسافة خمسة وعشرين متراً تقريباً، سقط العريس على الأرض والدماء تغطي قميص العرس الأبيض تحت البدلة، كان صوت إطلاق النار كصوت انفجار قنبلة، وسمع الناس صوت الخرطوش في البيوت والمقاهي والبقالة والحلاقين، وانتشر الخبر "ضرب نار" ، مجدي ضرب فايز خرطوش.

السيارة المرسيديس نقلت فايز إلى غرفة العمليات وليس إلى كوشة الفرح العامرة بالورد، ظل في العمليات عدة ساعات، انتشرت المئات من شظايا شبيهة بحبات العدس في بطنه ومحاشمه،

استخرج الأطباء العشرات منها من بطنه وصدره ووجهه، وتركوا
مئات الشظايا في الفخذين.

كانت العروس بفستان عرسها وأبوها وأمها والعشرات من أقارب
وأحباب الحاج في المستشفى وأمامها ينتظرون الخبر.

قال الطبيب: الحمد لله يبدو أن الإطلاق كان من مسافة بعيدة فكتبت
له حياة جديدة، أحست منى أن الحياة عادت إليها من جديد وانهارت
على أحد الكراسي باكية.

أما الحاج مدحت فأخذ الطبيب جانباً وسأله هل أثر الخرطوش على
فايز كرجل؟

ابتسم الطبيب ابتسامة مأكرة وقال: لا. اطمئن يا حاج مدحت.

ضغط الحاج مدحت على ذراع الطبيب ونظر في عينيه وقال له:
أرح قلبي يا زيدان إنها ابنتي.

قال الطبيب: كان يحلم بها وهو تحت تأثير التخدير ويكرر اسمها
وكان في حالة شديدة واستخدمنا بلاستر طبي لتقييد حركته
المشاغبة وأردف الطبيب ساخراً، كان يتزوج على نفسه بين الموت
والحياة.

ممرضة المتابعة هي الوحيدة التي سمعته في البنج يهذي باسم
جيهان، وعندما جاء دكتور زيدان توهم أنه يهيم في غرام منى.

الحاج مدحت أضاءت وجهه البشرى وابتهج وانتقلت مشاعره وأفكاره إلى اتجاه آخر.

أخرج هاتفه المحمول وأجرى اتصالاً بشخصية مهمة جداً وشدد عليه أنه يجب القبض على مجدي في أسرع وقت.

ظلت منى بجوار زوجها حتى تعافى وخرج من المستشفى سائراً معافاً على قدميه، بقيت له الندوب والذكرى ومئات الشظايا التي تغوص في لحم فخذه وهناك تبقى حتى يموت.

الزغاريد التي لم تنطلق يوم العرس انطلقت في المستشفى وخرج العروسان منها إلى النادي، الفرع كان حديث المدينة وحضره تامر حسني وريكو والراقصة دينا، كانت ليلة ولائم وخير، أكل فيها أبناء الفقراء أطعمة وحلوى لم يروها في حياتهم، كان البوفيه عامراً لدرجة مذهلة، وأمر الحاج مدحت أمناء الشرطة القائمين على المكان للسماح للنساء والأولاد الفقراء المحتشدين أمام النادي بالدخول للحصول على الطعام الذي لم يكذب يؤخذ منه شيء، كان مشهداً أسطورياً، تم صف الناس الذكور في صف والنساء في صف، ووقف السفرجية يوزعون الأطعمة والحلوى بعدالة على كل الفقراء سعداء الحظ الذين احتشدوا لمشاهدة فرح منى الطواهرجي على فايز من وراء أسوار النادي المرهوب.

بعد أن اطمئن الحاج مدحت على العروسين في شقتيهما لا ينقصهما أي شيء حتى الشمبانيا الفاخرة، أمرهما بعدم النزول بدون إخباره،

وأوقف لهما أربعة رجال مسلحين بمسدسات حديثة سريعة الطلقات،
رجلان في المدخل ورجلان أمام باب الشقة .

رصد الحاج مدحت عشرين ألف جنيه مكافأة لمن يخبره بمكان
مجدي، شعرت الشرطة بإساءة بالغة وحرص كبير، ودخلت سباقاً
حاسماً، مر يومان فقط وكان مجدي في قبضة العدالة، وحصل
الواشي على مكافأته، في سرية تامة، وذهب خيال الناس إلى القول
أن من وشي بمجدي أحد أصدقائه المقربين جداً.

١٩

عندما رآها في قميص النوم الأبيض الذي يكشف تفاصيلها البديعة
المتناسقة، لم يدرك هل هي بيضاء حقاً أم قمحية؟

كانت تشع بياضاً بلون اللبن تحت الإضاءة القوية للمبات النيون
المستديرة، أخذ يتنقل بعينه باندهاش على البدن المتناغم، وعيناه
تلمعان بالحرمان والجوع، كان يتمنى تحقيق العلاقة الكاملة ولم
يعش هذه التجربة. في الكلية لم يقم أي علاقة مع أي فتاة زميلة،
كانت منى متوسطة الجمال، قصيرة القامة، تملك جسداً متناسقاً
مكتنزاً بجمال خاص، خبأت لعريسها مفاجآت جميلة تحت ثيابها
المحتشمة، فلم ير منها إلا كعبيها وكفيها ووجهها الحنطي الفاتح في

الشتاء والأسمر في الصيف منذ طفولتهما معاً، كانت تتمدد على فراش العرس بقميص أبيض قصير ينحسر عن مواضع حسنها، تضع يديها على بطنها في توتر وقلق ومستسلمة تنتظر فارسها الذي اختارته بكل كيانه، لم يلمسها رجل أبداً، لم ترتكب أي حماقة صبيانية ولا دخلت مغامرة عاطفية ولا تنكشف على نفسها إلا عند الاستحمام، تعشق القمصان وزجاجات العطر المميزة وآخر صيحة في المكياج والموضة، لا تمتلك أي خبرات، إلا نصائح أمها عن الزواج، قبلاتها الوحيدة في حياتها كانت يوم حادثة الفسيخ.

ظل يتأملها عدة دقائق متفحصاً بعينين محرومتين جائعتين، صدرها الذي يعلو ويهبط مع أنفاسها المتوترة وصمتها التام، منبهرًا بجمال تفاصيلها، كان يرتدي بيجامة عريس بيضاء بعد أن خلع بدلة الفرح المعركة واستحم، أحس أن الاضاءة تسبب له توتراً عالياً لكنه لم يشأ حرمان عينيهِ.

قال لها: أنت جميلة وبيضاء جداً، ردت عليه مبتسمة بعينين سعيدتين وخجل بناتي نشر حمرة الورد في خديها: بحبك.

كانت مستغرقة بالتفكير في لحظة اقترابه منها لتنتقل من دنيا البنات لعالم النساء، لا تحب لون الدماء، لا تشاهد ذبح العجل على سطح البيت كل عام في عيد الأضحى، تصرخ إذا رأت صرصاراً أو احتكت بساقها قطة جذبتها زفرة السمك، تتجمد من الرعب لو رأت برصاً صغيراً يزحف على الحائط .

تحرير العريس، يصعد إلى الفراش أم يخلع بيجامته أولاً ؟ كان ينتظر كلمة تشجيع منها، ينتظر أي حركة أو إشارة تلهمه التصرف الصحيح، لكنها كانت تتصرف بخجل بلا حركة بلا كلمة بلا إشارة.

فك الأزرار، أحست بخجل ودون وعي منها نظرت بتحقق إلى المنطقة التي أصابها الطلق الخرطوش فأحست باطمئنان وزال توترها ورعبها من فكرة أن إطلاق النار على زوجها تسبب له في عجز.

قال لها: مبروك يا عروسة، لم يقبل فتاة طيلة عمره بعشق إلا هي ذلك اليوم، يوم الفسيخ.

دقيقة فقط، شعر بخجل وخرج رهيب، نام على ظهره وحدث في السقف قال لها: مبروك يا عروسة، مبروك يا مومن.

قالت: الله يبارك فيك يا فايز.

قام وجلس على الفو تيه بجانب السرير وأشعل سيجارة.

كشف صينية الأكل وبدأ يأكل ثم اكتشف أنه لم يعد يعيش وحيداً فرفع صوته لزوجته في الحمام: أسرع يا منى سألتهم الطعام كله دونك.

كانت تغتسل بمياه دافئة وقد ذهب رعبها الى الأبد، لم تعد خائفة من ذكورة الرجل، دقيقة واحدة من الألم، مع مرور الدقائق شعرت

بتحسن، كانت تعيسة وحزينة، لأن مشاعرها لم تتحرر، تتمنى أشياء كثيرة بقوة من حبيبها، لكن تربيتها المحتشمة منعتها من النطق، تحممت بماء دافئ.

لأوّل مرةٍ تشعُرُ أنّها أصبحت تمتلك شيئاً جائعاً ينبغي أن ينال حصّته من الطعام الوفير كلّ يومٍ، إنّها الآن تمتلك حيواناً أخرس يجب أن تُصغي لصوته الخفي وتفهم رسائله المتعددة.

عندما خرجت من الحمام ، كانت أنثى جديدة تحمل جسداً لديه حقوق ومطالبات، مشّت برفق كجريحة وجلست تأكل مع زوجها الذي كان منهمكاً في أكل الحلوى، البسيسة والهريسة والبقلوة، بعد أن شبع من الجمبري والبطارخ والحبّار، أما هي فأكلت حماسة والقليل من الشوربة والأرز وقطعة بسيمة بالبندق والسمن البلدي.

كانت ترتدي روب أبيض على قميص أحمر، علمتها أمها أن تستحم وتتطر وتبدل ألوان ملابسها، فقد أنفق الحاج مدحت مبالغ كبيرة لتجهيز منى أحسن جهاز، قال لها: أكملّي أكلك يا عروسة.

قالت: الحمد لله شبعت يا فايز.

طلب منها أن تعد له الشاي، عندما وقفت ومشّت إلى المطبخ ببطء غير مقصود، و رآها تسير أمامه تدفق الدم، لم يستطع الصبر قام متوجهاً إلى المطبخ وهي أمام الحوض تغسل يديها من أثر زيت الطبخ وسمن الحلويات، قال لها: بحبك يا منى.

بدأت مشاعرها تتحرر أرجعت رأسها للخلف، شعرها المبتل أنعش روحه، رائحة عطرها الفواح أشعلت النار فتدحرجت كالكرات الثائرة فوق أرضية المطبخ.

كانت تكتشف كل ساعة سراً جديداً في جسدها لم تعرفه من قبل.

تنتظر غليان الماء لتعد كوبين من الشاي وهي تغلي مثله، تشتعل حنيناً، خرج فايز من الحمام وهي تذوب السكر في الشاي، قدمت الشاي لزوجها، رغم لذته العارمة والفرحة بجمال زوجته كان مغتماً، لأنه لا يحتمل البقاء.

كان مهموماً يستغرق في التفكير في وسيلة تمنحه المزيد من الوقت ، وكانت منى تنبهر بجسدها الصامت الذي تحرر فجأة وأصبح لديه رغبات محمومة.

تحملت العروس وارتدت قميصاً أسود وروب برتقالي، تركته مفتوحاً كي لا تدفئ نفسها ثم تبترد، كان مستلقياً على ظهره في الفراش يتشمم القماش الملطخة، عندما دخلت الغرفة أحس بحرج ووضعها مكانها على الكوميدنو، نظر إلى عروسه في القميص الأسود القصير، فتوهم أنها بالفعل أكثر بياضاً من اللبن، تجاهلت ما رأيته ولم تنطق، لكنها تعجبت كثيراً وشعرت بغرور يجتاحها، جلست على كرسي التسريحة أمام المرأة، فتحت علبة مكياج، تخرج الأدراج منها كمدرجات بعضها فوق بعض، طلت شفتيها، تكحلت، دلكت وجهها ورقبتها بكريم بديع الرائحة كأنه مزيج من جوز الهند

والقرنفل والفل، تعطرت بعدة زخات من زجاجة عطر بدت في أنف فايز باهظة الثمن، عندما فاح الشذى في الغرفة، شعر برغبة جامحة، نهض من الفراش فجأة واقترب منها، قفزت من فوق الكرسي واندفعت حتى وقفت بالباب، نظر إليها وسال لعبه وانفرجت شفتاه ودق قلبه بعنف.

هو الآن ذئب جميل، يضع يديه على الكرسي الخاوي، نظر لنفسه في المرأة بإعجاب، حول عينيه تجاه عروسه، كانت مستعدة للهروب والمراوغة، اندفع نحوها بطريقة تمثيلية، أراد مطاردتها قليلاً قبل الإمساك بها، اندفعت باتجاه غرفة الصالون، أمسكها من الروب من ظهرها، تركته له، احتضنه وتشممه وقبله وقذفه على كرسي التسريحة، ظل يجري وراءها وهي تهرب منه، تدور حول الفوتيلات والكنبة في غرفة الصالون الواسعة، دوخته وهو يحاول الإمساك بها، هكذا أوهمها .

غامر، قفز فوق مقعدة الكنبة، صرخت: يا لهوي يا فايز وجرت باتجاه الحمام.

كأسعد زوجين عاشت منى وفايز أجمل سنوات العمر، كانت تحبه بكل ذرات كيائها وكان مرتاحاً ومسيطرأً ولا ينقصه سوى شيء واحد.

مضت ثلاثة أعوام لم يرزقا بأطفال، أنفقت منى على المعامل والتحاليل آلاف الجنيهات، ثم أنجبت توأمين من عملية أطفال أنابيب.

فقدت أباهما وأمها في الأراضي المقدسة، ماتا في تدافع الحجيج وتم دفنهما في البقيع.

نشأت العداوات بين فايز وأولاد الحاج مدحت وأصهاره، وقسمت التركة عن طريق المحكمة.

عندما رجعا من ألمانيا بالتوأمين قررا بيع العمارة والمخازن التي من نصيبها في ميراث أبيها، وانتقلا والرضيعان إلى الحي السابع بمدينة نصر، خوفاً من مجدي الذي خرج من السجن، وظهر في المدينة من جديد على عدة مقاه، شظايا الطلق الناري الخرطوش الذي أطلقه مجدي على فايز ليلة عرسه ظلت تذكره بنجاته من الموت بأعجوبة، وعندما تناقش مع منى حول فكرة الانتقال إلى مدينة أخرى لم تعترض، خاصة بعد العداء الرهيب الذي تكشف بين أخوتها واقتتالهم على الميراث وفشلهم في تسوية المشكلة ودياً

وذهبوا للمحكمة وأزعجوا روح أبيهم في قبره من أجل المخازن والمحلات والعقارات، وكل من كان لديه أمانات مالية لم يقتصمها مع إخوته الآخرين.

كانت الحياة بالنسبة لمنى هي الطفلان وفايز وكانت الحياة بالنسبة لفائز الابتعاد عن الشر وعن مجدي وعن الكراهية.

مجدي يتوهم في داخله أنه لا توجد نساء سوى منى، كان الذئب بداخله يريد لها بأي ثمن، يتتبع أخبارها ويحاول رؤيتها حتى وهي تنشر الغسيل، كان مفتوناً بها لدرجة الهوس ومستعداً لفعل أي حماقة للوصول إليها، ولما باعت حصتها من الميراث وانتقلت إلى مدينة نصر كان يتتبع أخبارهما كما يتشمم الذئب دماء الضحية الجريحة التي تنزف فوق الجليد.

اشتريت منى فيلا من ثلاث طوابق في الحي السابع، وصيدلية في موقع متميز في الحي السادس، وسيارة بي أم بدلا من سيارتها السوزوكي التي يعرفها مجدي.

كان فايز يتناوب على الصيدلية مع صيدلي آخر، يتسلم العمل في السادسة حتى الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل حسب حالة البيع والجو العام، ومنى تفرغت لتربية الطفلين.

العلاقة الدافئة بينهما ابتردت وهدأت ثم بلغت حد السكون، صار ينام في غرفة بمفرده بحجة أن الطفلين يمنعانه من النوم والاسترخاء.

كان قلبه ممتلئاً بالشك، ف مدحت وكارم الذين أسماهما على اسمي أبيه وحميه لا يشبهانه، وكثيراً ما ظل ساهراً طوال الليل يفكر في الأنابيب والتلقيح الصناعي وبنك الحيوانات المنوية والجرائم التي تقع بدعوى التجارب والعلم والتطور.

كانت منى في قمة الحزن لأنها تحتاج إلى مرضعة لأن اللبن لم يجر في صدرها، فقط قطرات قليلة متقطعة. ورغم توترها من إقامة فوزية معها في الفيلا لخدمتها والاهتمام بالمطبخ وإرضاع الولدين، كان يؤرقها الإحساس القوي الذي ينتابها من الانسجام والتناغم الغريب بين فوزية وفايز.

كانت فوزية امرأة سمراء عادية لا تلفت نظر أحد، نظيفة في ثيابها وجسدها وأنيقة ومنظمة رغم أنها لم تحصل سوى على الابتدائية، كانت أطول من فايز نفسه، عفوية ونشيطة ورائحتها طيبة طوال الوقت، رائحة جسدها نفسه وليست رائحة عطر، حتى أنفاسها عندما تصطدم بأنفاس منى كانت أنفاساً طيبة ومحبية، وكان الرضيعان لا يريدان مفارقة حضنها إلا إذا استغرقا في النوم.

وجه فايز يبتسم ويضيء بالسرور عندما يمازح فوزية أو يسألها عن شيء، الشكوك تسربت إلى قلب منى، الفيلا الواسعة بطوابقها

الثلاثة جعلت حياتها عذاباً، لم تكن تستطيع الاستغناء عنها أو التخلص منها ولا حتى استبدالها، بدأت عصبيةً منى وصوتها المرتفع يُحول علاقتها بفايز إلى تنافر ومشاحنات وخناقات مستمرة على أتفه الأمور حتى جاءت لحظة الحقيقة.

ظلت تتربص بزوجها وفوزية ليالي طويلة، تخرج من غرفتها على أطراف أصابعها وتتسلل إلى غرفة الخادمة لتتأكد أنها نائمة، وإلى غرفة زوجها أيضاً، ولم يحدث في أي ليلة أن اكتشفت شيئاً غريباً.

وفي أحد المساءات قبل ذهابه إلى عمله وهو يودعها بقبلة باردة شمّت منى رائحة صدر فوزية على أنفاسه.

هي تعرف هذه الرائحة جيداً ولا يمكن أن تخطيء فيها، كاد قلبها يتوقف من الصدمة لكنها تماسكت وحافظت على هدوئها حتى تعرف ماذا يجري؟

بعدما انصرف وسمعت محرك السيارة تنطلق من أمام الفيلا، أخذت تبكي بحرقة، ثم جففت دموعها وضغطت جرس استدعاء فوزية، واستعادت توازنها وانتظرت.

دخلت فوزية الغرفة بابتسامتها الجميلة وقالت: تحت أمرك يا ست منى.

- تعالي يا فوزية. قربي منى.

- أو مري يا ست هانم.

- اقتربي مني انظري ما في رقبتى من الخلف، لدغة بعوضة أم حبة ملتهبة؟

اقتربت فوزية من منى وانحنت فوقها لتتفحص رقبتها من الخلف، تشممتها منى بعمق وتمعن، صرخت في جوفها صرخة مدوية، إنها بالفعل نفس الرائحة على شفاه فايز وأنفاسه.

قالت فوزية بعد أن شاهدت احمرارا أعلى ظهر منى من أثر الحك الشديد : الجلد فيه احمرار يا ستي ادلكها لك بالكريم ؟

- لا. اذهبي لأشغالك.

- حاضر يا ست .

ظلت تبكي دون انقطاع وأحست أنها وحيدة في هذا العالم وتذكرت والدها الحاج مدحت يوم صفعها في شقة فايز وكيف قبلت يده فرحاً لأنه قبل أن يزوجها له ثم صرخت بصوت مكتوم : يا خاين يا ابن الكلب. ووضعت وجهها في الوسادة وظلت تبكي وتنتحب حتى أيقظت الصغيرين.

ضغطت الجرس ومرت دقائق وجاءت فوزية.

- تحت أمرك يا ست هانم.

- أرضعي الولدين.

- الآن يا ستي؟

- نعم الآن.

كانت فوزية ترضع الطفلين مرات عديدة من الصباح إلى ما بعد العصر وتجهز لهما رضعتين دافئتين في زجاجتين بحلمات تحسبا لقلة اللبن في صدرها.

جلست ووضعت الطفلين في حجرها .. ، كانت منى تحقق ببصرها بحدة وترقب ما يجري، لم يكن في صدرها أي لبن، شخص ما شربه كله.

اعتذرت قائلة: آسفة يا هانم. ثم ألقمت الطفلين الزجاجتين.

لما شبع الطفلان وضعتهما في السريرين، عندئذ طلبت منها الاقتراب، ثم طلبت منها أن تستدير، وتضع يديها وراء ظهرها.

ارتبكت فوزية وأحست بشر وخوف لكنها استسلمت لطلبات الهانم الغريبة.

كانت منى تضع تحت البطانية لفافة شريط لاصق عريض وقوي وقامت بتوثيق يدي فوزية لما فوق الرسغين، وهي ترتجف وتقول: ما الحكاية يا ست هانم ؟ الله .. بتربطيني ليه؟ أنا عملت إيه؟

لكن منى بعد توثيق يديها جذبتها من قفاها فأنامتها على السرير وقفزت وأمسكت قدميها وأدارت الشريط اللاصق مرات متتالية فأصبحت موثوقة اليدين والقدمين.

كانت مرتعبة ولا تفهم ما يحدث وهي تتساءل برهبة وهلع: ماذا فعلت يا ستي؟ لماذا تقيديني هكذا؟ وبكت وغلبتها رعشة خوف عارمة.

لكن منى لم تنطق، بركت فوق صدرها وأمسكت ضرعها بين يديها وتشممت واستنشقت رائحتها واطمأنت للحقيقة التي اكتشفتها.

الآن لم تعد متشككة أن الرائحة التي وجدتتها على شفاه زوجها وأنفاسه هي هذه الرائحة.

فتحت درج الكوميدنو وأخرجت مقصاً كبيراً ولوحت به في وجهها وقالت لها: ستخبريني بالحقيقة وإلا سوف أشقك من هنا لفمك. وتحسستها بطرف المقص.

بكت فوزية وتضرعت وقالت: أنا عندي عيال يا ست هانم وأنا لم أفعل شيئاً ولا حول لي ولا قوة.

كررت الكلمات بحدة ثم وضعت المقص في ذيل الجلباب وشقته بالمقص.

لم تكن فوزية ترتدي سوى شورت من القطن ، ظلت تبكي وترتعش من الخوف وتتوسل الرحمة من منى.

أمسكت منى المقص وشقت الشورت وأشارت لها سوف أشقك بالمقص من هنا حتى فمك. إن لم تخبريني بما يجري بين زوجي وبينك.

قالت: حاضر يا ست هانم سأخبرك بكل شيء لكن أبوس رجلتك استري لحمي ربنا يسترك.

قالت لها: لا توجد مشكلة سأستر لحمك. ثم جذبت البطانية وسترت جسدها.

بدأت تحكي ما يجري بينها وبين فايز، قالت: ذات صباح كنت أضع الطفلين فوجئت به واقفاً عند رأسي يتأمل شرب الولدين من صدري.

- وأين كنت أنا عند حدوث ذلك ؟

- كنت تستحمين يا هانم.

- أكملني

- عندما شاهدت الأستاذ واقفاً شعرت بالحر الشديد وضعت

الطفلين في السرير وأردت الخروج اقترب وقال: أين الهانم؟

قلت: تستحم يا سيدي.

قال: أمامها وقت طويل لتنتهي من الاحتفال ببدنها.

ثم طلب مني أن أصنع له فنجان بن وقال: أنا في غرفتي أنتظر.

- الخائن .. أكمل.

- بعدما طرقت الباب ودخلت كان مستلقياً على الفراش، قال: ضعيه على مكتبي، وأنا أضع القهوة، قام وأغلق باب الغرفة.

...

قاومته بكل قوة وتعاركنا، دفعته وجذبتني وسقطنا على الأرض، هددته أنني سأصرخ لكنه فاجئني أنه لا يريد مني شيئاً، فسألته متعجبة وماذا تفعل إذن؟

.....

قلت: أنت مجنون، لن أفرط في عرضي. لكنه ثبت ذراعي بيديه ومزق جلبابي بفمه وفعل كالطفلين ولم يتجاوز ذلك، كنت أستطيع ضربه لكن تعلقه كطفل وعدم محاولته الاقتراب من عفتي منعني من ضربه.

- الكلب القذر. أكمل وماذا حدث بعد ذلك؟ هل جاء إلى غرفتك؟

- أبدا يا هانم لم يحدث أبدا.

- إذن تذهبين أنت إلى غرفته.

- لم أفعل ذلك أبدا.

- أخبريني بالحقيقة ولا تكذبي وإلا مزقتك بهذا المقص.

قالت فوزية وهي تبكي وترتعد: في كل صباح كنت تستحمين فيه
كان يأتي وبسرعة يتم الأمر ولا شيء أكثر من ذلك.

- لا أصدقك.

- أقسم لك يا هانم هذه هي الحقيقة.

- سنرى، أريد أن أشاهد ذلك بنفسي.

انهضي ثم قصت منى الشريط اللاصق من يديها ورجليها
وحررتها، وطلبت منها كتمان ما حدث واتفقت معها أن تظل على
طبيعتها مع فايز دون أي تغير أو رفض أو ارتباك حتى تشاهده
بعينها.

قالت: حاضر يا هانم.

- اذهبي للمطبخ وأنهى أشغالك.

- حاضر يا هانم.

- انتظري، خذي هذا المبلغ، اشترى جلايب جديدة وشورتات،
وأعطتها منتي جنيه.

- ربنا يحفظك يا ست هانم ، لكن أنا خائفة مما سيحدث.

- لا تخافي من شيء اذهبي لأشغالك.

أعدت منى مسرح العمليات، أعدت كاميرات الفيديو وجهزت كل وسائل التسجيل للحظة الحقيقة.

فايز أدمن الرائحة وأدمن المذاق واعتاد .. كأن الأمر جزء من وجوده.

ظلت منى تشاهد ما يفعله عبر شاشة المراقبة في الغرفة الثانية وصوت ماء الدش يهدر على لا أحد.

كانت تبكي بحرقة وغضب وهي تشاهد زوجها يفعل بنهم كالأطفال ، ثم ينهار ويجلس تحت أقدام الخادمة ويضع رأسه على ركبتيها، ثم يذهب إلى غرفته ويغط في نوم عميق.

فكرت في الخروج وتمزيقه بالسكين لكنها كانت تحبه ولم تكن تقوى على ذلك.

فكرت في طرد فوزية ولكنها ستضطر لإحضار مرضعة أخرى وستكرر المأساة، وما تحسبه شراً عظيماً الآن ربما يتحول إلى مأساة حقيقية مع امرأة أخرى.

الشيء الذي استطاعت فعله هو أن تبكي حتى أرهقها البكاء.

فوزية كانت مرتعبة ولا تعرف ماذا ستفعل منى معها.

خرجت من غرفة المكتبة، دخلت على فوزية وأغلقت الباب، كانت تدور برأسها أفكار دموية، فكرت في قتل فايز بالسّم، كانت تحترق ولا تعرف ماذا تفعل، تسممت علاقتها مع إختها وتركت مدينتها التي تربت فيها وها هي الآن في صخب مدينة كبيرة نشيطة بالحياة والناس، قالت فوزية : سامحيني يا ست منى أنا ليس لي ذنب.

- اخرسي لا تنطقي بكلمة لا أريد أن أسمع صوتك، أعدي لي فنجان بن.

- حاضر يا ست هانم.

فكرت في الهرب ومغادرة الفيلا، لكنها خشيت أن تتهمها منى بالسرقة، وتجد نفسها مسجونة مهانة جائعة ولن يهتم لصراخها وكلماتها أحد، تعرف أنها لا تستطيع الدخول في عدااء أو مشاكل مع أصحاب الفلل والسيارات الفارهة، هي امرأة لا حول لها ولا قوة، لا يهتم أحد لوجودها ولا يشعر بغيابها أحد سوى أطفالها الذين يفرحون الفرحة الكبرى عندما تذهب إليهم مساء كل خميس ومعها بقايا الطعام البائت المكس في ثلاجة الست، لحوم ودجاج وطواجن وأرز وحلويات وأسماء، تسمح لها منى بأخذه معها وتقوم بتوصيلها لبيتها في الجيزة، وتعطي أولادها الثلاثة مبالغ مالية، وتشتري لهم ملابس وأحذية.

كانت فوزية تحب منى حباً حقيقياً بسبب حنانها ولطفها معها ومع أولادها، وكانت منى تشعر أن فوزية صديقتها وأختها وأمها أيضاً،

فعندما تصاب منى بنزلة برد وترتفع حرارة جسدها وتسعل ويهزمها الإعياء، تشعر بحنان فوزية الغامر ورعايتها الصادقة الدافئة لها، كانت منى تشعر أنه من الممكن الاستغناء عن فايز أما الاستغناء عن فوزية. فكان كابوساً مرعباً بالنسبة لمنى الوحيدة بلا إخوة ولا صديقات في هذه المدينة القاسية التي لا يعرف فيها الناس بعضهم بعضاً.

- القهوة يا ست هانم

أخذت فنجان البن وسألتها هل ضايقها فايز في المطبخ؟

- لا يا ستي لم يخرج من غرفته.

- أنت تحممت وأبدلت ثيابك؟

- نعم يا ست هانم.

- طيب اقفلي الباب وتعالى.

ارتعبت فوزية وارتبكت وتسمرت في مكانها، طمأنتها منى قائلة:
لن أؤذيك.

أغلقت الباب وعادت، فطلبت منها أن تصعد لتجلس بجوارها في السرير، قالت: العفو يا ستي.

- اطلعي يا فوزية واسمعي الكلام.

- حاضر يا ستي.

قالت لها منى وهي ترتشف البن : تسلم يدك والله.

- الله يسلمك يا ستي.

تنهدت منى وقالت: ليس لي أحد في هذه المدينة إلا أنت، أنت أختي وصديقتي وأقرب لي حتى من زوجي وأجد راحتي معك، أعرف أنك تحبينني وتخلصين لي وليس لك ذنب فيما يفعله زوجي، أريدك أن تصبري وتحلمي تصرفاته المجنونة معك حتى أجد طريقة لعلاجه، ثم انهارت في بكاء ونحيب بصوت مسموع، ضمتها فوزية في حضنها وطبّطبت على ظهرها وقبلت رأسها وأخذت تواسيها وتخفف عنها، كانت تبكي وتنهمر دموعها على صدر فوزية العامر بالحنان. منى بعرجها الطفيف وقصر قامتها وحول الجمال بعينيها بدت مسكينة ضعيفة محطمة في حضن فوزية، واقتربتا بحميمية لأول مرة كصديقتين حقيقتين.

لم تعد الفرص تتاح لفايز للاقتراب من فوزية، فلم تعد منى تتغافل وتتركها له ليلهو بها كما يريد، ولم يكن فايز يستطيع الاستغناء عن فوزية بسهولة وسلاسة ولكن حقيقة الأمر أنه حصل على شيء جديد.

الحاجز الزجاجي تحطم، لم تعد هناك مسافات خجل أو توتر بين فايز وسميحة، تطورت علاقتهما عبر برامج الشات والفيديو، وتجاوزا مساحة الكلمات المنمقة ومارسا الغرام عبر أثير الانترنت، مضت الأسابيع وهما يسهران معا في علاقة ساخنة في عالم افتراضي وهمي لكنه متوحش ومليء بالمفاجآت.

ظل يؤجل يوم اللقاء ويتحجج بعشرات الأسباب الواهية، كانت سميحة أقوى وأجمل وأطول من منى، وكان يخشى أن يفشل معها، كانت تلمح إلى الزواج وإنجاب طفلة جميلة منه، وكانت أقصى أمنياته ان تنجب له طفلة تشبهه، تشعره بأبوة حقيقية ليس فيها شك ولا معامل ولا أنابيب.

فايز أدرك أسرار البطارخ يوم حادثة الفسيخ، اكتسب خبرات كبيرة مع الجمبري والحبار والأسماك، يعرف كيف يستفيد الرجل من هذه المأكولات السرية التي تملأ جسده بالرجولة والفحولة، لكن المصيبة لم تكن في الرجولة، المصيبة كانت في كابوس عظيم مزعج هو السرعة، أخبره أهل الفتوى أن حجر جهنم سينهي مأساة حياته، لم يترك عطاراً إلا واشترى منه أحجار جهنم وجربها ولم تجد نفعا، أشار عليه خبراء آخرون بمخدر الحشيش لكن كانت رأسه خفيفة لا تحتمل نفسين اثنين ويصاب بسكر شديد، جرب المراهم والكريمات

والبخاخ ولم يستطع البقاء، كان بحاجة إلى معجزة تمنحه الثقة بنفسه ، الثقة التي سقطت على البلاط تحت قدمي جيهان.

شهور قليلة بين علب الأدوية في الصيدلية فتحت عينيه على أسرار الكيمياء، الصيدلي الشاب الذي يقتسم معه ساعات العمل كان شيطاناً عليمًا بأسرار الضعف البشري وبراعة الكيمياء في علاج هذا الضعف، رغم تحفظ ووقار فايز مع قدري زميله في الصيدلية، تخلى عن وقاره لأن جمال سميحة لم يعد يسمح له بالنوم ولا الراحة ولا التوقف عن التفكير فيها، كان يتوجه إلى الإسكندرية كل عدة أسابيع فيشتري الجمبري والحبار والبربوني وسمك موسى والمياس والدنيس والشفش والقاروس وأي نوع من الأسماك المميزة الذي تربى عليه وعرف أسرارها، كان يتجنب السفر إلى دمياط كي لا يلتقي غريمه مجدي.

على غير عادته طلب من فوزية تجهيز غداء من الجمبري والحبار لرجلين وأخبرها أنه سيتناول الغداء مع قدري في الصيدلية. فاجأ دكتور قدري بالغداء وأغلقا باب الصيدلية وأسدلا الستارة على الباب مع لافتة صغيرة (مغلق للصلاة الحق بنا)

ظل قدري يتساءل مندهشاً ومستمتعاً بروعة ولذة الجمبري والحبار وسمك موسى، استفسر عن الأصابع الصغيرة المحمرة في الزيت أخبره فايز أنها بطارخ سمك موسى.

كان قدرى يخفى حرجه وجهله بهذا العالم المليء بالأسرار والأنواع، وهنا جاءت الفرصة لفايز لفتح الموضوع.

هذه المأكولات البحرية تمنح الرجال طاقة مدهشة من الفسفور والأوميجا ثري لكن للأسف يذهب كل هذا هباء بسبب مشكلة غبية ليس لها حلول.

سأله أي مشكلة؟

قال: وهو يصرف بصره إلى الطعام كي لا تتواجه عيناه معه: السرعة.

ضحك قدرى بغرور قائلاً: الحل موجود إن شاء الله.

رد مستهترا ليحفز قدرى على الكلام والإفصاح : أبدا لا توجد حلول لقد جربت كل شيء.

قال: لكنك لم تجرب طريقتي.

سأله وهو يأكل بشهية أكبر عما كان حاله أول الطعام وكان معدته اتسعت فجأة أي طريقة يا عبقرى؟

وقف قدرى وأحضر من صفوف الأدوية علبة حبوب وأخرج شريط برشام به حبتان صغيرتان، ووضعه أمامه قائلاً: السيالس.

قال: أعرفه وجربته وجربت الفياجرا الفايزر الأمريكية وجربت حجر جهنم والحرمل والخلجان وجوزة الطيب وكل قاموس المغيبات.

قال قدري لكنك لم تجرب سيالس مع هذه وأخرج من حقيبتة الصغيرة أنبوب صغير بني اللون ووضعه أمامه.

أمسك الأنبوب وتأمله وفتح الغطاء وتشمم الرائحة وقال: لقد جربت كل أنواع الرش حتى البنج الموضعي.

قال قدري: بخة بحرص بحجم قطرة ماء على الأسفل. هل تفهمني؟ تتركها نصف ساعة وتبتلع نصف حبة صفراء من هذا الشريط، ثم تغتسل بماء دافئ وصابون وسترى معجزة.

وقفت اللقمة في حلقه من فرط السعادة والرغبة في التجربة، أفرغ كوب الماء في فمه وأصابته الزغطة، قال له قدري: خذ نفساً كبيراً واكتمه لدقيقة، تنفس فايزر، ملأ رئتيه بالهواء ثم كتم أنفاسه فضغط الهواء على اللقمة المتعثرة ودفعها إلى المعدة.

ظهرت الدموع في عينيه ونطق الشهادتين ثم عاد لالتهام الحبار والبطاطس المقلية وهو يتأمل الاسبراي وشريط البرشام، استفسر عن البخاخ لأنه لم يفهم اللغة الغريبة فأخبره قدري أنه علاج ألماني للسرعة.

قال وهو يضع البخاخ والشريط في جيبه : سنرى.

عندما دخل غرفته بعد الاطمئنان على منى والطفلين كان يتمنى اختبار الدواء الجديد، وعندما قبّلها لم تتحرك في جسده شعرة واحدة تجاهها، كأنها وسادة من القش.

ثرثر قليلا معها وانسحب بهدوء قبل أن يمتد الحوار إلى علاقتهما التي ابتردت والحب الذي يضمحل يوما بعد يوم، كانت تتمنى أن تعاقبه على خيانتة لها مع فوزية ، لكن كانت تشفق عليه وتشعر أنه مريض ومكتئب وفي حياته سر عظيم.

لم يلتفت لقميصها الأحمر وعطرها الجذاب، كانت تنتظره مثل كل ليلة، تستحم وتتعطر وترتدي أجمل ملابسها، رغم تعلقها برقبته عند باب غرفتها قبّلها ببرود وأنزل يديها وخرج.

كأنها يُست من الكلام معه تركته ينصرف إلى قوقعته التي اختارها لنفسه، كان الحنين يقتلها والشوق يحرق أعصابها، لم تكن سعيدة. ألقت نفسها في الفراش منكفئة على وجهها وانهمرت في البكاء والنحيب.

ظلت سميحة تتصل بفايز الذي كان مشغولا بتجربة الدواء الجديد، قطرة واحدة رشها وظل ينتظر، شعر باشتعال حريق وأصابه الفرع لولا تذكره لكلمات قدرى عندما تشعر بالحرقان الشديد لا تخف.

ملاً الكوب ماء وأخرج من الشريط حبة صفراء تشبه حبة لب سوبر
وتحير كيف يقسمها نصفين؟

مد يده في جيب بنطلونه الملقى على السرير واستخرج موس
الحلاقة الذي أعطاه له قدرى، كشف الغلاف الورقي عن شفرة
الموس وبرفق قسم الحبة طولياً نصفين ثم ابتلعها واحتفظ بالنصف
الثانى.

نام على ظهره وظل ينتظر مرور الدقائق، وبعد انتهاء الوقت
المحدد منح نفسه ربع ساعة إضافية للاطمئنان ثم دخل حمام غرفته
الخاص وأدار خلاط الماء حتى أصبح الماء ساخناً بدرجة متزنة
واغتسل جيداً من أثر الاسبراي.

لم يتغير شيء، قالها لنفسه وهو يلاحظ أن كل شيء طبيعي وهادئ،
عاد للسرير شاهد فيلماً ولم يحدث شيء، لم ينتفض عرق
واحد.

زاد توتره وأخذ يدخل بشراسة، جاءه اتصال من سميحة.

قالت له كلمات مثيرة وأخبرته برغبتها فيه وأنها تتمنى لو كان معها
الآن.

قال لها: وأنا أيضاً.

اتصلا عبر الياهو والكاميرا، طلب منها أن تقوم وتقع وتمشي وتتحرك، طلب منها أن تصير على طبيعتها، كانت مترددة وقلقة وكانت طلباته حادة وصارمة، تخفت، طلب منها أن تروح وتجيء ، استدارت، تدفق الدم، تهيج كالثور، تملل في الفراش، حاول مرات ومرات إراحة نفسه، وسميحة تحاول مساعدته بأي طريقة ولم يفلح أبدا ، حتى أوشك أن ينجرح.

ارتقى على ظهره، أشعل سيجارة أخرى وأخذ يستمتع بتدخينها وهو يشعر أنه عاد للحياة من جديد وقد امتلك العالم، ويلهث فرحا وهو يردد: الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، كأنه وجد كنزا.

أحست سميحة بالقلق فاتصلت به، فاجأها بلهجته الجديدة.

دعينا نتحدث في أمر مهم، ما رأيك أن نتناول العشاء غداً؟ أريد أن آكل من طهي يدك!

ضحكت سميحة ضحكة ماجنة كالعادة وقالت: حمدا لله على السلامة، وهو كذلك سانتظرك في العاشرة مساء.

فايز مهد لنفسه لخيانة منى مع فوزية كأنه يتدرب على الأمر، كانت نفسه تلومه وتحاسبه على ما يفعله مع فوزية ورغم تضارب المعلومات لخطورة وأضرار لبن المرأة للرجل الناضج لم يكن يستطيع الاستغناء عنها طوال الشهور الماضية، ولو كان يملك ذرة ثقة في نفسه لاقترب منها كأبي زوجين لكن خوفه من الفشل أربعه،

ملاً الجبن قلبه أن يظهر عاجزاً أمام الخادمة الفلاحة طويلة القامة كأعواد القصب العالية، أما عجزه مع منى القصيرة ذات العرج الطفيف وقدرته الماضية عليها في سنة زواجهما الأولى وذوبانها بين يديه فلم يكن يخشاه.

كان ممداً في فراشه بعد إنهاء الاتصالات مع سميحة، هدأت الحرارة وانحنى الصاري و الرياح سكنت، كانت النافذة مفتوحة، وسيجارة الحشيش في يده توشك أن تنتهي، تخيل أنه رأى طائراً أسود هبط إلى الغرفة ثم تحول إلى صبي أرمـد أبيض ناعم يرتدي قرطاً ذهبياً في أذنه، له شعر أحمر، كحيل العينين، يتمايل أمام فايز كخيال بين السراب والحقيقة، كان يرتدي جلباباً أبيض شفافاً واسع الفتحة عند الصدر، أمسكه من الكتفين ثم أسقطه إلى الأرض..

أخذ يروح ويجيء داخل الغرفة ثم التفت لفايز وجلس على ركبتيه وأخذ يحبو، كقطة تستدعي قطاً .. ، امتلأت شرايين فايز بالدم وارتفعت حرارة جسده، أنزل ساقيه على الأرض، كان الصبي يزحف على ركبتيه ويديه، فتح باب الغرفة بفمه وخرج إلى الطرقة، قام فايز وتتبعه وهو كما ولدته أمه، صعد الصبي السلم إلى الطابق الثاني وتبعه فايز، انتهت خطوات الصبي الأرمـد أمام باب غرفة فوزية، فتحه والتفت لفايز واختفي داخل الغرفة، تبعه فايز، صعد الصبي السرير ودفن وجهه في الوسادة، وضوء القمر يدخل من

النافذة الزجاجية ويضفي عليه سحرا غامضا، فايز استوثق منه واستمات بيديه بكل قوة على جسده.

صرخت فوزية صرخات مكتومة، لم تكن تريد صنع فضيحة واستدعاء منى إلى هنا.

- يا لهوي! في إيه يا سي فايز؟ سييني الله يسترك، أنا غلبانة أبوس رجلك، يا لهوي، ستي منى ممكن تدخل علينا، سييني إلهي يستر عرضك.

كان فايز غائبا عن وعيه وفوزية تحاول بكل قوة منعه من الوصول إليها وهي تتعجب لهذه القوة الهائلة التي دبّت في أوصاله والثقة الجبارة والشجاعة الغريبة.

قالت له : لن تأخذني إلا بالحلال أو وأنا ميتة.

ظن أن ملابس نومها الخفيفة وعريه سيمنحه القدرة عليها، كانت فوزية تعشق فايز عشقا ملتهبا وتحلم به كل لحظة من حياتها، وعندما وجدته مصرا على الوصول إليها ثنت ركبتيها فظن أنها استسلمت له ثم رفته رفسة قوية فطار واصطدم بالحائط وسقط جوار السرير.

ارتدت جلبابها وهو يتلوى من الألم ويتأوه ولا يستطيع القيام، اقتربت للاطمئنان عليه وقالت: سامحني يا سيدي. لكنه جذبها بجانبه على الأرض وضمها، فضمته هي الأخرى وقالت له :

دماغك ناشفة أوي يا سي فايز وضربته برأسها على جبهته ثلاث ضربات بخبرة ففقد الوعي على الفور.

مثل طفل رضيع حملته على كتفها ونزلت به إلى غرفته، وهي تلبسه ثيابه راته جميلا وذاب قلبها مثل الشمعة على النار، كان نائما كطفل رقيق ساذج، توهمت أنها ستقبل شفتيه وتتحسسه، شعرت بقوة غريبة تسيطر عليها وتتحني بوجهها عليه، لكن أفاقت على صوت قاس خشن ينفجر في الظلمة الأخيرة من الليل، تلفظتها برضا وراحة قلب (الله أكبر والعزة والدوام لله) واستترت بطول النداء فألبسته ودثرته وانصرفت.

حاولت منى إيقاظه لتناول الغداء عند الثالثة عصرا، ولم تفلح، فخرجت يائسة.

كانت تتأمل وجه فوزية وهي تجهز المائدة وتقول: وجهك منور اليوم كأنك عدت للوراء عشر سنين.

ابتسمت فوزية ابتسامة مرتبكة وقالت : الله يجبر خاطرك يا هانم.

قالت لها: هانم؟ وضحكت ضحكة ممرورة ثم قالت لها: احنا اصحاب

وطلبت منها أن تجلس لتناول الغداء، لكن فوزية اعتذرت بأنها ليست جائعة وستأكل في المطبخ وقتما تجوع.

قالت لها: كلي جيدا أنت تتعبين في إرضاع الطفلين.

- اطمئني يا هانم ، ينزل لهما رزقهما وفيرا وأمسكت صدرها باليدين.

أحست بالإثارة، كانت في أشد الاحتياج لفايز، طرأت فكرة شيطانية على رأسها، هرعت إلى غرفتها وأحضرت الشريط اللاصق والمقص، وطلبت من فوزية حبل غسيل.

دخلت غرفة فايز بهدوء وأغلقت الباب، كان نائما على ظهره، أوثقت قدميه بالشريط اللاصق بنعومة ورفق وصمت، ثم قيدت ذراعيه بحبلين قصيرين وربطتهما في العמודين الخشبيين المخروطين في جانبي السرير بمنتهي الرقة والتأني، وهو مستغرق في نوم عميق.

استيقظ على أنفاسها الساخنة، كانت مندهشة من أين أتت هذه الفحولة الجديدة، انتبه للحبال في يديه ورجليه، ضحك بغرور وقال لها وهي منهمكة وشعرها يخفي ملامحها: طيب كنت ترني عليا أو تبعتي لي كلمني شكرا وضحك بمجون.

كانت مستغرقة ومتعجبة، كانت مثل ذئبة متوحشة لا تسمع إلا صوت جوعها الشديد، واهتزت الأرجوحة بعنف.

كان فايز مستمتعا ليس لحصول منى على رغبتها ولكن لنجاح الدواء الفذ.

كادت منى أن تقتل نفسها وعلا صراخها وازدادت تشنجاتها وارتعشت عدة مرات حتى انهارت فوق صدر فايز كبيت أسقطه الزلزال.

قال لها : فكي قيدي قبل أن تموتي وضحك.

لكنها ظلت جائمة فوق صدره وقلبها تتسارع ضرباته وتشتد ولم يهدأ إلا بعد مرور عشر دقائق.

مازحها قائلاً : أين تعلمت لعبة الحبال هذه؟

قالت له : أنت من علمتني هل نسيت ؟

تذكر فايز ذكرياتهم الأولى وجلسهما معا أمام اللاب توب لمشاهدة الأفلام .. حتى فقدوا الرغبة تماما في بعضهما البعض، ولولا بخاخ قدرى وحببة السيالس وبطارخ سمك موسى والجمبري والحبار وجريمة الليل الفاشلة مع فوزية لما حدثت هذه الموقعة.

أحضرت منى الغداء لفايز في الفراش، قبلت يديه قبلات عديدة، وهي لا تصدق استعادتها لزوجها ودفئه مرة أخرى، أخذت تطعمه بيدها ويتبادلان القبلات، وتقبل يديه بإسراف ثم بدون أي شعور بالعار قبلت قدميه. أرادت أن تستفسر عن سر التغيير والوقت الطويل، فأخبرها أن السبب دواء ألماني جديد.

سألته ما هو؟ أنت نسيت أنني دكتورة صيدلة!

فأراها البخاخ والحبوب.

قالت له : حل رائع لكنه باهظ الثمن.

أخبرها أنه بثمن أكلة جمبري وكابوريا وليس كما توهمت.

ضحكت وقالت : الثمن هنا وأشارت إلى .. فانتفض.

ماذا تقصدين يا منى؟

قالت هذه المتعة ستكون على حساب البروستاتا.

رغم رعب المعلومة لم يكثرث فايز كثيرا ولم يشغل تفكيره، أصبحت شهيته مفتوحة للنساء، أضى مؤمنا أنه يصلح لعدة نساء، وأنه يستحق أربعا منهن، ولا بأس أن يجمع بين فوزية وسميحة ومنى، ولما لا؟ بالحلال وشرع الله أفضل من الخيانة والقذارة والتلصص.. لكن كيف يمكن إقناع منى بهذا الأمر؟

مستحيل أن تقبل بفكرة كهذه فهي تملك كل شيء، وحبها لفايز لن يكون كافيا لتضحي هذه التضحية الهائلة.

رتب الأفكار في رأسه وسرح بخياله في اللحم الذي لم يتذوقه بعد، نظر في ساعة الهاتف، أخذ حماماً، ارتدى طاقم ملابس داخلي جديداً ، تعطر في كل مكان، بخ العطر في فمه، ارتدى قميصا وبنطلونا أنيقين، ودع منى وهي تشعر في قلبها أنه ليس على طبيعته.

قضى ثلاث ساعات ونصف في الصيدلية، ثم أغلقها وقاد السيارة واشترى وردا وعلبة حلويات مختارة بعناية وخاتما ذهبيا.

ركن السيارة أسفل شجرة قريبة من عمارة سميحة، اتصل بها، أخبرها أنه في الشارع، قالت : اصعد أنا أنتظرك، سألها ثانية عن الطابق والشقة فطمأنته أن الباب مميز عليه رأس أسد.

حمل الورد والحلوى والفاكهة وصعد وهو يرتجف من القلق والتوتر، تذكر نزوله من شباك غرفته وسيره فوق الكمر الخرساني للوصول لشباك غرفة جيهان ومشاهدتها مع فوزي، امتلأت عروقه بالدم وهو يصعد السلم بهدوء كاللصوص لا يسمع لخطواته أي صوت، رأى الباب وهو على محور السلم لكنه رأى طفلا ينزل السلم فصعد هو للأعلى للتشويش.

ظل ساكنا للحظات في الطابق الأعلى حتى نزل الطفل الذي نظر إليه باستغراب ودهشة كشخص غريب، رن هاتف فايز فكاد قلبه يتوقف من الهلع، ألغى استقبال المكالمات ونزل مسرعا متوجها إلى رأس الأسد ونقر فوقه بأصابعه، أحس أن سميحة تنظر في العين السحرية، عندئذ أطفأت اللمبة أمام الباب، فتحتة وجذبت فايز للداخل وأغلقت الباب، أخذت الورد والحلوى والفاكهة ووضعتهم على الطرابيزة واستدارت إليه.

عانقها بقوة وضمها إليه كأنه يضم جيهان، كانت مرسومة في خياله هكذا، شيء لا يفهمه يسيطر على عقله أن سميحة تشبه جيهان

كأنهما توأمتان، قبل يديها وضما لعدة دقائق، كان منبهرًا بعطرها
لدرجة شديدة وتعجب متى توصل البشر لعطر أنثوي بهذه الروعة
والسحر، كل ذرة في كيانه تذوب وتنهار أمام جمال وأنوثة سميحة.
أمسكته من يده وأخذته للداخل وهما لا يتكلمان، كان النور خافتًا،
لمبة صغيرة فقط نورها الشحيح لا يكشف أي تفاصيل للشقة ولا
لسميحة، دخلا وأغلقت الباب وأضاءت النور الأحمر، وغابا في
عناق طويل.

مثل عالم خبير متمرس في معمله وتجاربه كانت عيناها تغيبان
حتى تختفي الحدقتان تحت الجفنين وينقلب بياض العينين للأعلى
فيحل محل الغابة الزرقاء، عندما رآها هكذا ظن أنها ماتت، لقد
أرهقها حتى أمطرت وارتجفت، سبعة زلازل كما أكدت له غير
التوابع، كانت على لسانها عبارة مرعبة دائما: مفيش رجالة.

وكان يريد أن يؤكد لها حقيقة ما، رغم أنه تساءل في داخله كثيراً
من أين عرفت سميحة أنه لا يوجد رجال ولم تتزوج سوى مرة
واحدة؟

كان سؤالاً مستفزاً كحقل الألغام، ألغام كأسماء رجال عبروا من
هنا، من جنة سميحة.

أخرج هاتفه من جيب بنطلونه الملقى على الأرض وأغلقه،
وانصهر الحديد في النار.

كانت فوزية تموت وتحيا وتبكي وتحترق وهي تنتصت على غرفة فايز عندما قيده منى بالحبال، وبعدما خرج فايز من الفيلا ترك الباب الخارجي مفتوحا، لم تحتمل فوزية مشاهدة منى تغنى وتنمىل وهي تصفف شعرها بدلال أمام المرأة، كانت تتمنى أن تخبرها بالسر، أن فايز ليس ملكا لها وحدها، وأنها كانت تستطيع امتلاكه الليلة الماضية، لكنها لم تستطع لكي لا تخسر أكل عيشها الذي تنفق منه على أطفالها الفقراء، ومن أجل أن تظل قريبة من الرجل الذي عشقته وسمحت له أن يقترب منها كرضيع، كانت فوزية تختنق من دنيا غير عادلة، منحت هذه المرأة القصيرة العرجاء الحولاء كل شيء.

كانت تحترق ببطء وهي تنظر إلى منى لأول مرة بعين الحقد والحسد والكراهية، تمنى لو ماتت وتصبح هي سيدة هذه الفيلا الواسعة.

انتبهت منى أن فوزية تحمق فيها بطريقة جديدة تماما، سألتها : مالك يا فوزية؟

- أبدا يا ست منى اشتقت لأولادي و أريد الذهاب لرؤيتهم وأبيت معهم وأعود في الصباح.

- لماذا لم تخبريني وفايز هنا ليقوم بتوصيلك؟

- لا توجد مشكلة يا ست منى سأذهب في المترو اطمئني.

قامت منى وفتحت درج الكوميدينو وأعطت فوزية مئتي جنيه ثم أعطتها عشرين جنيها للمواصلات وقالت لها: اشترى حاجات حلوة للبنات.

ثم طلبت منها أن تأخذ دجاجتين من الثلاجة وزيتا وسكرا وأرزاً، وأكدت عليها أن تجيء قبل الظهر وأن تغلق الأبواب وراءها جيداً بمفاتيحها الخاصة بها، وقبلتها وودعتها، خرجت فوزية من الفيلا واستغرقت منى في مداعبة الطفلين وتأمل نفسها أمام المرآة بارتداء وخلع ملابس جديدة تلبسها لأول مرة منذ شرائها.

سمعت منى كأن أحداً يتنقل على سلالم الفيلا، توهمت أن فايز عاد لسبب ما لكنها لم تسمع صوت السيارة، ارتدت الروب ثم اتصلت بفايز فوجدت هاتفه مغلقاً، فزاد قلقها وتوترها، خرجت إلى الشرفة ونظرت إلى الطابق الأسفل وإلى الحديقة والسور والشارع، كانت أعمدة الإنارة مضاءة والهدوء يعم المكان، اتصلت مرات ومرات بفايز ولكن النتيجة واحدة، مغلق.

عادت إلى الداخل وأغلقت باب الشرفة بإحكام وعندما التفت رأت مجدي يهز السريرين بالطفلين، صرخت فرعاً: مجدي!

أظهر سكيناً كبيراً لامعاً أمام عينيها وأخبرها أنه سيذبح الطفلين لو نطقت أو صرخت وطلب منها أن تهدأ، سقطت منى راکعة على ركبتيها وهي تبكى منهارة وتتوسل.

- أبوس رجليك يا مجدي طفلاي ليس لهما ذنب.

اقترب منها وضمها في صدره وتشمم رائحتها، ومرر يده على شعرها وهي تنتفض وترتجف وقلبها ينخلع في صدرها، رفع وجهها لأعلى ونظر في عينيها وقلبها عنوة من شفتيها ... ثم طرحها على ظهرها على الأرض.

كان فايز يعتصر سميحة في حضنه دون أن تستطيع بصيرته القاصرة وقلبه الأعمى أن يسمعا صرخات الألم والاستغاثة التي أطلقتهما منى دون أن تنطق كلمة واحدة، الطفلان الرضيعان يبكيان رعبا لرائحة رجل غريب وغياب أبيهما في لحظة الاحتياج الحقيقية إليه. أخذ مجدي يضغط بيديه على رقبة منى ويخنقها ببطء وهو يهزها بعنف وقسوة، اغرورقت عيناها واعتكرتا بلون الدم، سعلت بقوة، حاولت دفعه عنها بيديها، وهي تتوسل إليه

- ارحمني يا مجدى ارحمني أنا عمرى ما أذيتك.

- حطمت حياتي وعمرى، أبوك وهبك لفايز بعد خدمتي له طيلة عمرى، سأخنقك وأخنق طفليك وزوجك الكلب سأقتله.

فقدت وعيها وظن مجدي أنه خنقها، كانت تتألم روحيا ولم تشعر بمتعة ولا لثانية واحدة، لم يتفاعل نصفها الأسفل بهذا الاغتصاب، ولا أحست به، كانت كل مشاعرها محتشدة رعبا، وتفيق من صدمتها النفسية على عضة قاسية من فم مجدي على صدرها،

أخبروا الشرطة أن الخادمة صرخت عندما رأت اللص يقفز من سور فيلا منى.

لما أفاقت من الإغماء هرعت إلى الطفلين وعانقتهما وظلت تقبلهما وتشكر الله الذي كتب لهما النجاة، كانت مهزومة محطمة يملأها الرعب ولم تجف دموعها، كانت تفكر هل ستخبر فايز أن مجدي اغتصبها؟

أحست بغم كبير وحزن عظيم وتذكرت أن المجرم عندما بدأ في خنقها كان ذلك بعد أن طرح ماءه الآثم في رحمها، ومر في ذهنها هاجس مرعب أنها من الممكن أن تحبل من مجدي المجرم صبي أبيها في مخزن الأسماك الذي حاول قتلها منذ ساعة واحدة وأطلق الخرطوش على زوجها يوم زفافها.

بحثت عن هاتفها فلم تجده، لاحظت خلو أصابعها من خواتمها ودبلة زواجها، انتبهت أن الدولاب مفتوحا تفحصته فلم تجد مصاعها، بكت وانتحبت، فتحت درجا صغيرا في التسريحة وأخرجت هاتف نوكيا قديما، قامت بتشغيله واتصلت بفايز، كان هاتفه مغلقا.

الدورية الراكبة وقفت أمام الفيلا، ضغط أمين الشرطة الجرس، كانت منى منهارة ومحطمة، ما أشد احتياجها لفايز الآن، لو لم تتركها فوزية هذه الليلة بالذات، لو لم يقتتل إخوتها على الميراث لما جاءت إلى هذه المدينة الغريبة وعاشت وحيدة بلا عائلة ولا إخوة

ولا أصدقاء، تذكرت أباهـا وبكت، نادته بصوت مسموع بابـا:
أحتـاجكـ.

تجمع عدد من الأهـالي أمام باب الفيلا حول سيارة الشرطة،
ووصلت الضوضاء لمسامع منى، فتحت الشرفة وهي ترتجف من
الخوف رأت تجمع الناس سيارة الشرطة، تحرك أمين الشرطة
الشاب حتى أصبح قبالتهـا خارج سور الفيلا، سألتـه: خير؟

قال: نريد أخذ أقوال حضرتك بخصوص الحرامي الذي كان في
فيلتكـ.

ارتبكت منى وفكرت في إجابة مناسبة فوجدت نفسها تسأل الأمين:

- هل أمسـكتـم به ؟

-لا يا أفندم ، صدمته سيارة قسمته نصين، البقية في حياتكـ.

شهقت وأحست أن الله انتقم لها ولشرفها، لقد فهمت الآن أن الله
سمعها، وأن العناية الإلهية تتدخل بطرق مختلفة تماما عن حسابات
البشر، وأن وفاتها الوهمية وصعودها للسماء لحظة فقدان وعيها
كانت بالفعل لحظة إنقاذها، وأن مجدي تم جذبه إلى نقطة لامعة
أخرى غير شهوة سلب حياتها.

أحست بالأمان يعود لروحها من جديد، ورددت في أعماقها الشكر
العظيم للهـ.

قالت لأمين الشرطة: أنا معي طفلان وزوجي ليس هنا هل يمكن أن أحضر إليكم في قسم الشرطة عندما يعود؟

قال الأمين : طبعاً يا أفندم سننتظركما.

قالت له: ميرسي أشكرك ، أريد أن أسأل حضرتك عن شيء.

- تفضلي.

- هل وجدتم المسروقات؟

- أي مسروقات؟

- ذهبي ومصاغي.

- للأسف يا أفندم لم نجد جوار الجثة أي مسروقات.

شكرته منى ودخلت غرفتها وأجهشت بالبكاء ثم شكرت الله على انتقامه من مجدي.

أخرجت الهاتف واتصلت بفايز، كان هاتفه مغلقاً.

لم يشبع فايز من سميحة ولم تشبع منه، كان يعتبرها أول امرأة حقيقية يلتقيها في حياته، وتعهدا أن يظلا معا إلى الأبد وأنه سيتزوجها على منى لكنها اعترضت قائلة: لا أقبل بضرة.

وقالت : أريد أن أخبرك بشيء يحق لك أن تعرفه.

تغير لون فايز وقال لها: ما هو؟

قالت : أنا متزوجة من زميل لي بالجامعة في السر، تزوجنا بعد وفاة زوجي.

تتحننت وقالت : زواج عرфия.

سألها وما تزالين على ذمته؟

قالت : نعم.

قال فايز : يعنى أنا ارتكبت خطيئتين.

قالت سميحة : سأنهي علاقتي به.

قال : لماذا لم تتزوجا زواجاً قانونياً؟

قالت: هو أيضاً متزوج ولا يستطيع الزواج بي، زوجته تملك كل شيء.

كادت تقول له مثلك تماماً لكن أمسكت لسانها.

سألها هل تحبينه؟

عندها احتضنته قائلة: أحبك أنت يا فايز.

- كم ظللتما معا في هذا العرفي؟

قالت : شهر

قال لها : هل هناك ثمرة وأشار إلى بطنها.

قالت : لا .. اطمئن.

سألها عن الساعة قالت له : الوقت ما يزال مبكرا إنها الثالثة.

انتفض واقفا وشرع في ارتداء ملابسه وهي تضحك وتسخر من خوفه وارتبأكه لأنه تأخر عن مواعده المعتاد ساعتين.

قبلها وعانقها وقال : سنتكلم عندما أصل.

نزل السلام كلص ركب سيارته وغادر الشارع وفتح هاتفه المحمول، جاءت الإشعارات تباعا، تعجب لماذا تتصل به منى من الرقم القديم؟

اتصل به.. ردت عليه وهي تنوح وتجار بالبكاء.

- فايز انت فين؟

عندما صعد إلى زوجته حكّت له كل شيء ، إلا شيئا واحدا .

احتضن الطفلين ومنى وضمهم في صدره وظل يبكي ويقول في نفسه : سامحني يا رب.

لم يترك منى لينام في غرفة أخرى بل نام بقربها وبقرب طفليه وفي الصباح جلست فوزية بالطفلين وذهبت منى مع فايز لقسم الشرطة، تحدثت عن سرقة مصاعها وهاتفها المحمول فقط، في المحضر، ولم يعرف أحد أين اختفت المشغولات الذهبية.

فوزية ظلت تواسي منى وتطيب خاطرها، كي لا تحزن على ذهبها الذي فقدته، وأخبرتها أن عليها أن تحمد الله لأنه أنجاها من القتل، وأنها ستتنسى اللحظات الصعبة التي عاشتها تحت سطوة مجدي وأن الأيام ستداوي الجرح مهما كان غائرا حتى ولو ترك ندبة جليلة.

اعتادت منى على النوم بمفردها مرة أخرى وكذلك اعتاد فايز على الحياة حرا في غرفته، لم تبرأ أبدا من صدمتها النفسية، تعرضها للاغتصاب قتل بداخلها مشاعر الأنوثة، ومع ارتفاع بطنها كحامل كانت تزداد حزنا وغما لأنها تعرف أن هذه ثمرة محرمة.

فايز المهووس برجولته المزيفة أصبح لديه صيدلية صغيرة خاصة في غرفته بحجم ديب فريزر، فيها حبوب السيالس والفياجرا الفايزر والاسبراي الألماني، بل والمنشطات الأنثوية أيضا التي تمنح المرأة رغبة وشراسة أكثر.

فوزية اعتادت على محاولات تسلل فايز إلى غرفتها في أغلب الليالي، وكانت تغلق بابها بإحكام ولما طلب منها القرب بوجه مكشوف طلبت منه أن يتزوجها على سنة الله ورسوله في السر، لم يتردد ووجد في زواجه منها راحة نفسية لعذاباته، ولم يشغل باله كثيرا بالمشاكل التي ستقع عندما تكتشف منى هذه الحقيقة، كان مفتونا بنفسه كأنه لا يوجد رجال في هذا العالم سواه، وفي لحظة أنس وفرفشة مع سميحة حيث أصبحت ليلة الخميس لقاءهما

الرئيسي في شقتها اعترف لها أنه تزوج فوزية سرا زواجا شرعيا موثقا، وكشف لها لأول مرة أنه يلتقي فوزية كل يوم، أما منى فأصابها زهد مفاجئ ولم تعد تحاول اغرائي، ربما شغلها الحمل عني؟

أصببت سميحة بخيبة أمل فقد كانت تتوهم أنها المرأة الوحيدة في ملكوت فايز تماما كما توهم أنه الرجل الوحيد في ملكوت سميحة، وعندما اشتعلت نار الغيرة في قلبها طلبت من فايز أن يتزوجا يوم الأحد القادم، ولما سألها عن زوجها العرفي قالت انفصلنا ومزقنا الورقتين.

وافق فايز لكنها اشترطت أن يكون زواجا عرفيا ولم يعترض.

٢٢

منى تعرف باليقين والتحليل أن فايز يملك حيوانات حية بالملايين لكن كما أخبرها كل الأطباء في الماضي حيوانات ضعيفة لا يمكنها اختراق أي بويضة إلا في لحظة معجزة من عمر الحياة، وهي تقنع نفسها الآن أن المعجزة وقعت لهما بالفعل. وأنها لا يمكن أن تكون حملت من مجدي الذي خنقها على أرضية هذه الغرفة منذ شهور.

ولدت سميحة بنتاً في اليوم الأول من ديسمبر في عيادة توليد لطبية شهيرة، وفي اليوم الثاني عشر ولدت منى توأماً ولداً وبنتاً في مستشفى خاص واستخرجت لهما قيدين للمواليد بتاريخ الثاني عشر

من ديسمبر لعام ألفين واثنى عشر. باسم فايز كارم الفار، وقيدت
سميحة ابنتها روزاليا باسم أبيها فايز الفار أيضاً، دون علم منى
بذلك.

كانت سميحة تعرف أن منى تسكن معها بنفس المدينة أما منى فلا
تعرف هذه الحقيقة ولم يخطر ببالها أن سميحة زميلة فايز القديمة
ضرتها الآن.

لم يكن من السهل أن تتعايش منى مع أزمتها النفسية الكبيرة، كثيراً
ما فكرت في بيع الفيلا والصيدلية والعودة إلى دمياط وهدم هذه
الحياة المليئة بالكذب والقذارة، لكنها عندما تنفرد بذاتها تضحك
بجنون، فهي تربي وترعى طفلين من صلب مجدي ولا شك وطفلين
وحده الله يعرف من أبوهما ولو استطاعت إجراء تحاليل جديدة
لخصوبة فايز لفعلت وتعرف أن الحمض النووي لا يخطئ، أربعة
أطفال حملتهم بطنها الصغيرة، طفلان يذكرانها بليلة اغتصابها
واثنان يذكرانها بالعييب الذي كان في زوجها طوال الوقت وليس
فيها والذي كلفها أموالاً طائلة، كانت تعاني صراعاً عظيماً بداخلها
كل يوم، وتمنت لو أنها قد أخبرت فايز بحقيقة مشكلته فقد أخفتها
عنه والآن تعيش مع ثمرة الكذب وهي ترى نفسها تخدع زوجها كل
يوم دون أن تدرك أن الرجل الذي أحبته قد تزوج عليها امرأتين
خادمتها وزميلاته القديمة.

فوزية المرأة الفقيرة المسكينة، بناتها الثلاث تعودن على الحياة الطيبة من فائض بيت منى، وعندما تدخل فوزية على بناتها وأمها في بيتهم الأرضي في العزبة، يتجمعن حولها فرحين وهي تضع أمامهن ما لذ وطاب من اللحوم والدواجن والأسماك والطواجن والمشويات والحلويات، وهي تطعم أمها وبناتها، وتحمد الله على نعمته وتمتلاً عيناها بالدموع وترتمى في حضن أمها العجوز الضئيلة النشيطة كذكر الماعز.

سميحة كانت تكتفي بلقاء فايز ليلة الخميس بحجة انشغالها بالجامعة ونشاطها السياسي وحلمها بعضوية البرلمان، ولم يخطر ببال فايز الغافل أن سميحة البيضاء البضة ذات الشعر الأصفر والعينين الزرقاوين لديها نخبة من العاشقين من أرفع الرجال شأنًا ومناصبًا ولم يخطر بباله أنها كانت تريد منه تحديدًا إنجاب هذه الطفلة ليس أكثر، ولولا أنه كان يعرف مفاتيحها واحتياجاتها الحقيقية ويصل بها إلى قمة النشوة حتى تفقد إحساسها بالعالم لولا موهبته هذه لطأته ومزقت الورقة العرفية التي تجمعهما وستحتفظ بالبنات، لكن لم تعرف أن الطفلة ليست من صلب فايز العاجز عن تلقيح أي بويضة رغم الشكوك القوية في قلب سميحة أن والد ابنتها هو رئيسها في القسم الذي لم يحتمل البقاء سوى دقيقة ونصف ورغم ذلك شعرت سميحة بتغيرات في جسدها لا تعرفها ولما سألت

أمها عما يحدث للمرأة عندما تعلق في رحمها حياة، قالت لها عبارة غريبة : الرحم ينقلب.

كان فايز يدرك تعطش سميحة للسلطة والنفوذ والمناصب لكنه لم يفهم مبكراً أن أداة النجاح الأساسية لسميحة ليست موهبة فكرية ولا سياسية ولا ثقافية، كانت موهبة هو نفسه يغرق فيها لأذنيه وكان يؤمن أنها كأنتى تختلف اختلافاً عظيماً عن منى وفوزية، ليس فقط في طولها وتفاصيلها وبياضها وجمالها بل في قدرات خاصة يمتلكها جسد سميحة.

كان جسدها فياضاً بالحنان والرطوبة ولا يشبع منه، يخلق في نفسه رغبة نهمة تتجدد ولا تمر نصف ساعة إلا اقترب منها من جديد .

سميحة عندما ظهرت على القنوات الفضائية لأول مرة وشاهدها فايز شعر بفرحة عارمة، كانت تطرح نفسها كنانة برلمانية تسخر حياتها وشبابها من أجل خدمة الفقراء والمهمشين والمرضى و كانت شجاعة ظهرت مع رضيعتها الجميلة روزاليا في عدة لقاءات ولم يفهم فايز أنه لا مكان للرجل في حياتها إلا في ضوء اللمبة الحمراء.

أصبح خبيراً في العديد من الأمراض وعلاجها، واعتاد على سماع لقب دكتور، كان متواضعاً لمأحاً خفيف الظل، سريع البديهة وذكياً وفي عينيه لمعان شيطاني لا ينتبه إليه إلا أشخاص قلائل خاصة من النساء.

لم يكن يشبع، كان نهماً وضعيفاً أمام الأسماك والحلويات والجميلات والقصيرات والطويلات والسمينات والنحيفات، كان شرهاً بلا سقف لجوعه.

احترف إعطاء الحقن الوريدية وحقن العضل لزبائن الصيدلية، وكانت وصفاته الناجزة ناجحة في علاج نزلات البرد والمغص المعوي والكلي والسكري وارتفاع النقرس وآلام المفاصل، والهزال والضعف وسرعة القذف وضعف الأعصاب وفقدان الشهية، وبرامج التخسيس ومستحضرات التجميل ووسائل منع الحمل.

حتى أنه تشجع بالاستعانة بقدري وأجرى تجارب دوائية وحقن نجاحاً في مجال الأعشاب الطبية والخلطات وتربح منها أرباحاً جيدة.

في جلسة صفاء ومع تناول الحبار والمحار والجمبري، تكلم معه قدري عن الحبوب الممنوعة المدرجة في الجداول التي تمنع الحكومة بيعها إلا بروشنة طبيب مختومة.

وكشف له عن الأرباح الخيالية إذا قبل فكرة بيع الترامادول والتامول والأبتريل والترامايدين وأن الغالبية العظمى من الشباب بالإضافة لمخدر البانجو والحشيش لا تستطيع الحياة بدون هذه الحبوب، ثم ابتسم ابتسامة خبيثة وقال : كما لا يمكننا أن نعيش بدون فياجرا وسيالس.

سأله فايز كم قرصاً يمكن بيعه كل يوم؟

- في منطقة كهذه لا يقل عن ألف قرص يومياً.

- ألف قرص!

- وستتعرف على أجمل بنات في البلد.

وقف فايز منتفضاً كأنما جلس فجأة على جمرة.. بنات؟!

- نعم أجمل بنات مصر يا مستر فايز.

- وماذا لو كشفنا الشرطة وألقت القبض علينا؟

ضحك قدري بصوت مرتفع ساخر وضرب كفاً بكف ثم ضرب بكف يده على جبهته والتقط أنفاسه ونظر لفايز نظرة جديدة وهو يكتشف سذاجة ظلت مخفية عن عينيه لشهور طويلة وقال: لا يمكنك أن تحصل على عبوة وتبيعها بدون إذن.

- إذن من مين يا قدري؟

- الإذن من صاحب الإذن يا مستر فايز لا تخف ولا تشغل بالك سأتكفل أنا بهذه الأمور.

تحولت الصيدلية في فترة قصيرة لوكر معتمد لبيع الحبوب المخدرة ، حتى أحدث صيحة في عالم الغياب عن الوعي، لاصقات، ولبان وفوار وزيتوت حتى السجائر الإلكترونية.

كانت الأرباح الهائلة التي يحققها فايز ينفق منها مبالغ طائلة على الفتيات الجميلات المدمنات بعد مساومة سريعة، الحبوب مقابل الحب.

٢٤

لم يخطر بباله أن يلتقي طفلة صغيرة لم تبلغ الثالثة عشرة من عمرها ، مدمنة لكل أنواع الحبوب والبانجو، دخلت إليه الصيدلية بجسدها النحيل الطفولي الذي لا يشبع أي ذنب، لم يكن بينها وبين أي صبي فارقاً كبيراً، شعرها قصير مقصوص كولد، ترتدي بنطلوناً أبيض ملتصقاً ضيقاً، وقميصاً أحمر مفتوحاً من أعلى صدرها، لم تكن ناهدة ، كان صدرها مثل حبة بطاطا، مقسومة نصفين، لم ير من قبل شيئاً كهذا، كانت تعرف كل التفاصيل وطريقة الأخذ والعطاء من صديقاتها الأكبر سناً اللاتي غرقن في مستنقع فايز.

قالت: عازرة سيجارة حشيش وشريط أحمر وأكل وفلوس.

كان فايز في حالة انبهار وخرس، كان ذنباً كامل الخلقه والأنياب،
كان يلهث بالفعل، قال لها : كل ما ترغبين فيه ستأخذينه وأكثر.

أدخلها المعمل وأغلق الباب الزجاجي للصيدلية وأطفأ الأنوار
الخارجية وأنوار الصيدلية وأسرع لتناول الطعام الجديد.

لم يكن شاذاً ليعرف ماذا سيفعل بطفلة، لكن منظر الثمرتين
المدببتين أثاره بطريقة لم يحتملها، كانت قصيرة ونحيلة، أصابه
ارتباك وخلل. كيف يتعامل مع طفلة ينتهي رأسها عند سرته؟ كاد
يقتلها فأخرجته من ثورته بقولها: أنا جعانة أوي.

انخلع قلبه لأجلها، فجأة تحول إلى أب رحيم عطوف، أحست حنان
العالم كله فيه، سقط وجه الذئب ووجدت أمامها حملاً وديعاً رقيقاً
تلمع عيناه بالدموع، فتح الثلاجة ووضع أمامها كل ما لديه من
أطعمة وحلويات، أكلت بشراهة، كانت رغم أناقتها تبدو فتاة فقيرة
من أسرة محطمة، كان فايز معلقاً بين الاستذئاب والوداعة وكانت
الطفلة خبيرة إلى درجة تقشعر لها الأبدان قالت له بثقة: ولع لي
سيجارة علشان أدلحك.

أخذت نفساً وقالت: قرب أعطيك باك!

سألها متعجباً: ماذا تقصدين ؟

ضحكت وقالت له: قبلة بالدخان وعلمته الباكات، لكنه لم يحتمل
مجاراتها، كان بين يديها مثل قميص ناعم تحت المكواة وعندما

أكدت له أنها ليست بكرةً عندما لاحظت تردده وخوفه، لم يصدق لكنها كانت تسيطر تماماً على الموقف وهي تؤكد له بهدوء أنه عبيط ومغفل.

لو لم تخبره أن الوقت تأخر وأنها لا تستطيع البقاء أكثر لباتا معا للصباح في الصيدلية، أعطائها أكثر مما طلبت وسألها عن اسمها فقالت: سلوى.

سألها أين تسكنين؟

- أسكن في منطقة بعيدة عن هنا أذهب إليها في المترو خلال نصف ساعة.

- وما الذي أتى بك إلى مدينة نصر؟

- أبيت عند زميلتي في المدرسة أحياناً، تسكن في الحي السابع، وكنت أريد أن أتعرف عليك.

- أريد أن أراك كل يوم هل هذا ممكن؟

- سأعود إلى بيتنا غداً في العزبة بعد انتهاء المدرسة، وعندما ينتهي شريط البرشام سأجيئ إليك.

- لا يمكن أن يحدث هذا لابد أن أراك، لا تذهبي إلى المدرسة في الصباح مع زميلتك ودعينا نلتقي.

- أين نلتقي؟ هنا!

- لا في فيلتي في الحي السابع، لابد أن زميلتك تسكن قريباً من بيتي.

- سأقوم بتوصيلك الآن بسيارتي وأريك الفيلا وأنتظرِكَ في الصباح، ما رأيكَ ؟

- ينفع أجيب صاحبتني معايا؟

- نعم بالطبع يمكن جداً.

- اتفقنا، انتظري في المعمل دقائق سأضيئ الأنوار وأفتح الباب وأحضر السيارة، وأريدك أن تخرجي عندما أشير إليك وتركبين في المقعد الخلفي.

- فهمت.

ركبت الطفلة سلوى في المقعد الخلفي ذي الزجاج الفاميه، نزل فايز من السيارة، أحضر زجاجة بنج اسبراي وبنج وريدي وحقن، دسهم في حقيبة يده، وأغلق الصيدلية وانطلق.

دار حول الفيلا من كل الجهات وهو يوضح لسلوى المكان والبوابة والشارع، قالت له: اطمئن حفظتها كويس.

ثم قادتة حتى أقرب مسافة من عمارة صديققتها وقالت له: أنزلني هنا.

أخرج من جيبه ورقات من فئة المائة جنيه وأعطاهم لسلوى وقال لها: سأنتظرك في الساعة والنصف صباحاً، سأترك لك بوابة الفيلا الخارجية مفتوحة، تدخلين أنت وزميلتك وتغلقي البوابة، وستجدين البوابة الداخلية مفتوحة وأنا أنتظركما على العتبة، اتفقنا؟

قالت: اتفقنا.

منى وفوزية وسميحة لاحظن تغير فايز وبروده معهن في الأسابيع الماضية، لم يعد متلهفاً للتقرب من أي امرأة منهن... .. الفتيات المراهقات المتجددات أنسينه زوجاته الثلاث، حتى سميحة الموهوبة لم تعد تغريه.

عندما عاد بعد توصيل سلوى لم يتوقف عن التفكير فيها لحظة، كانت فوزية تنتظره ومنى تنتظره لكن فايز كان ينتظر الصباح، لم يتحدث كثيراً مع المرأتين قالت فوزية: أجهز لك العشاء يا دكتور؟ قال لها: أريد أن أنام ولا يزعجني أحد.

ثم قام وانصرف من غرفة منى فقاطعت انطلاقة الغربية وقالت متعجبة: لم تطمئن على الأولاد.

عاد معتذراً متحججاً بالإجهاد ثم قبل الأطفال الأربعة.

كان يبدو ملاكاً حقيقياً رحيماً ورقيقاً ومرهفاً لكنه عندما يتعري ويقع تحت سطوة وجبروت الوحش الجهنمي المكون من لحم ودم

وأعصاب وأنسجة، هذا الحيوان الأخرس الضعيف الذي يحول
البشر إلى ذئاب بدون مشاعر لا تسمع ولا ترى، يصبح شيطاناً
كاملاً.

نام أرقاً متوتراً نوماً متقطعاً، ضبط منبه الهاتف عند السادسة
صباحاً، لم يستسلم للنوم، أحرق العديد من السجائر، فكر لأول مرة
في ابتلاع حبة حمراء، تناولها وهو يقول: طباخ السم بيدوقه!

في السادسة صباحاً تسلل إلى غرفة فوزية، تركت الباب موارباً،
يحدوها الأمل ربما حركه الشوق فصعد إليها، كانت نائمة على
وجهها بدون غطاء، ترتدى قميص نوم أبيض قصيراً ومتعطرة،
عرف أنها انتظرتة ولما يُست نامت مكسورة خاطر، وضع أنبوبة
البنج أمام فمها وبخ بختين، ثم لف حول ذراعها رباطاً ضاغطاً
وحقنها في الوريد وفعل مع منى مثلما فعل مع فوزية، حمل مرتبة
إسفنجية ونزل إلى الطابق الأرضي، افترشها على الأرض ووضع
عليها وسائد الأنترية، أخرج من الثلاجة أطعمة وحلويات وفاكهة
وعصائر وجهاز كل شيء لاستقبال سلوى وصديقتها.

أزاح الستار وفتح الشباك المطل على البوابة وواربه قليلاً وهو
ينظر في الساعة وينتظر ولما اقتربت من الساعة والرابع خرج
وفتح بوابة الفيلا وترك البوابة مواربة، عاد إلى النافذة، تجاوزت
الساعة السابعة والنصف، مضت ربع ساعة أخرى كأنها سنة
كاملة، ضغط على أسنانه من الغيظ وقال: بنت الحرام.

عندما هم بإغلاق الشباك رأى سلوى تدخل مع زميلتها، فأسرع ناحية الباب لاستقبالهما.

جلست الفتاتان إلى الطعام بعد مصافحة فايز كأنه أستاذ في المدرسة، تأملتا الفيلا وقالت سلوى وهي تشير إلى سلم الفيلا الداخلي الأنيق: ماذا يوجد بالأعلى؟

قال لها: فيما بعد سأخبرك عندما تكبرين.

ضحكت سلوى وقالت: أنا كبيرة بما يكفي لكنك لا ترى.

نظر فايز لزميلة سلوى وسألها وهي تأكل بنهم: اسمك إيه يا عسل؟

- اسمي عبير

قالت سلوى وهي تذهب تجاه الأنترية: الله! أنت جهزت كل حاجة أهو... .. ثم ألقت نفسها فوق المرتبة.

أطفأ فايز سيجارته وبدأت الملحمة.

حذرتة بوضوح: لا تسكب الماء في الكأس.

صدمته الكلمة! حدث نفسه: يا لها من خبرات شيطانية لدى طفلة صغيرة.

في غمرة اندماجه مع الجنيتين الصغيرتين تدفق الماء واستقر في قعر الفنجان.

مضت الساعات واقترب العصر وانصرفتا، أعطاهما نقوداً وأقراصاً وعلبة سجائر مارلبورر ملغومة معبأة باحتراف بمخدر الحشيش وخرجتا من الفيلا واتفق فايز معهما على تقضية يوم معاً كل أسبوع بنفس الطريقة.

أعاد فايز المرتبة لمكانها فوق سريره وحاول إخفاء آثار الضيافة. صعد ليتفقد منى وفوزية.

أيقظ فوزية بصعوبة بعد أن بلل وجهها بالماء وهي لا تستطيع تحريك رأسها أو فتح عينيها، توهمت أنها بالليل وأنه غلبه الشوق، لكنه كان منهكاً ولا يقوى على الوقوف.

داعبها وقال لها: كل ده نوم ولما سمعت الآذان وسألته قال لها: إنه العصر ففزعت.

طلب منها أن تفيق وتنشط ونزل لإيقاظ منى.

جرعة البنج الضئيلة التي حقن بها فوزية لم تحتملها منى، حاول إيقاظها ثم أحس أنها متشنجة كأنها قطعة خشب، أمسك يدها تفقد نبضها، لا يكاد يشعر به، صرخ على فوزية، جاءت مسرعة فسقطت ثم قامت فسقطت مرة أخرى ثم تحاملت وسارت تستند على الجدران، كان فايز يضغط على صدر منى ويعمل لها تنفساً صناعياً.

قالت فوزية وهي ترتجف وتبكي وتتحسس منى وتقبلها وتضمها في صدرها: اطلب الاسعاف يا فايز .

٢٥

دخلت منى في غيبوبة، وتم إيداعها غرفة عناية متوسطة، جاء إخوتها من دمياط بعد الاتصال بهم، وعادوا جميعاً إلى دمياط عدا أختها صفاء التي ظلت معها، ترعاها أكثر من شهرين، حتى عادت من الموت للحياة.

وجهت النيابة تهمة الشروع في القتل لفائز بسبب حقنه لزوجته بمادة خطيرة لأسباب مجهولة، لكن أصر فايز على أنه أعطاهها حقنة تخدير خطأ بدلاً من حقنة مهدئة.

لم يهتم إخوة منى بأطفالها وتركوهم لفوزية بعدما عرفوا أن منى كتبت أملاكها بأسماء الأطفال الأربعة، أحزانهم على أختهم ودموعهم الغزيرة جفت على الفور عندما علموا أنها كتبت أملاكها لأطفالها، غضبوا لأنهم تكبدوا عناء السفر وتكاليفه بدون أي فائدة تذكر، وانزعجوا لذلك رغم كل محاولاتهم لإخفاء مشاعرهم عن

بعضهم البعض، لقد جاؤوا على أمل أن الولدين لن يعيشا كأطفال أنابيب وسيحصلون على نصيبهم في ثروتها لكنهم وجدوا الطفلين أربعة والميراث كله أصبح ملكاً لهم، وأكد الأطباء أن الأمل كبير في نجاتها من حقنة البنج والغيوبة، وأنها مسألة وقت.

طمأن المحامي الشهير، فايز أنه سيخرجه من القضية مثل الشعرة من العجين لأنه مجرد خريج تجارة جاهل بالطب والصيدلة والخطأ غير مقصود ولا توجد له أي دوافع إجرامية.

سميحة أرسلت لفايز رسالة أنها مزقت ورقة الزواج العرفي في أول يوم له في السجن، وأن علاقتها به انتهت، وعليه أن يضحى ليترك روزاليا تنعم بحياة كريمة بعيداً عن سمعة أبيها الملتخة.

قرأ الرسالة بضحكة مريرة انتهت بصفقه لوجهه بيديه وخبأه بينهما.

أما فوزية فكانت تطهو له أطيب الأطعمة وتحتال لإدخالها إليه في الحبس وتنفق باحتراف وأصبحت خبيرة في إدخال كل احتياجاته إليه من ملابس نظيفة وصابون، حتى ماكينة الحلاقة وهي من الممنوعات، تم إدخالها إليه مع مرآة صغيرة بشرط تسليمه هذه الأدوات العهدة مرة ثانية للعسكري الذي أدخلها إليه، وكانت تطهو له الفراخ واللحمة بوفرة تكفيه وتكفي المحتجزين معه تحت بند تجديد الحبس، أربعة أيام استمرار.

كانت فوزية تطهو الأطعمة ل منى وتضربها في الخلاط وتقوم
الممرضة بضخه عبر أنبوب طويل إلى معدة المسكينة منى وهي
في ملكوت الله وتزورها يومياً. حتى أن صفاء أخت منى أحببتها
حُباً عظيماً، وكانت تقوم بتبديل المواقع وتبيت بجوار منى وتسمح
لصفاء بالراحة والاستحمام وقضاء وقت طيب في فيلا منى.

أما دكتور قدرى فقد أدار العمل في الصيدلية على أكمل وجه كأن
فايز لم يرغب، ويذهب لإعطاء النقود لفوزية في الفيلا بانتظام.

سلوى ذهبت في الأسبوع التالي إلى الصيدلية ولم تجد فايز ولم
تعرف أي شيء عما حدث، وعندما دارت حول الفيلا لاحظت أن
السيارة متربة ولم تتحرك منذ فترة.

طلبت فوزية من فايز أن يسمح لها بإحضار بناتها للحياة معها في
الفيلا حتى يخرجها بالسلامة لأنها لم تعد تستطيع ترك الأربعة أطفال
والتحرك إلى أي مكان، ولولا استعانتها بأختها هند لتساعدها في
رعاية الأطفال لما أفلحت فوزية في مهمتها.

رفضت سلوى الانتقال مع أمها إلى الفيلا وأخبرتها أنها لا تريد أن
تكون خادمة وحاولت فوزية إقناعها أن الأمور تغيرت وأن صاحبة
الفيلا في غيبوبة وأنها مسؤولة عن أربعة أطفال ومريضة
ومسجون .. لكن سلوى كانت تريد أن تبقى حرة وتعيش حياتها كما
اعتادت بلا رقيب أو حساب ولما تعبت فوزية من الحديث مع
سلوى قالت لها: العنوان مكتوب لديك في ورقة داخل ألبوم صورك

وتستطيعين المجيء عن طريق المترو وقتما تريدين، وأعطتها نقوداً وقبلتها وأخذت الفتاتين وطلبت من أمها العجوز أن ترعى سلوى وتحاول إقناعها، رغم أن أم فوزية رفضت رفضاً قاطعاً أن تترك بيتها الفقير والذهاب معها إلى فيلا منى.

لم تفكر سلوى لحظة في قراءة أو معرفة عنوان عمل أمها كخادمة، ورغم أن الطفلة أقامت علاقات مع شباب ورجال كثيرين فقد تعلق بفايز تعلقاً رهيباً بسبب حنانه وكرمه وفهمه لاحتياجاتها ورغباتها.

كانت سلوى تمر بالصيدلية لتلتقي فايز، لكن لم تستطع معرفة ما جرى، رغم حصولها على ما تريد من قدري لكن بنظام ادفع واستلم.

كانت تمر من أمام الفيلا ربما تراه لكن كانت مغلقة النوافذ دائماً كأنها مهجورة.

بعد مرافعات ومداولات واستماتة متبادلة بين النيابة ومحامي فايز جلب له البراءة بعد حوالي شهرين.

٢٦

كانت عبير وسلوى تتسكعان وتأكلان أندومي وفجأة تقيأت سلوى، وعبير تسألها : ما لك يا بت ؟

قالت: داخلة وبرجع ومعدتي مقلوبة.

- أحبيه يا سلوى! الظاهر إنك حبلى.

نظرت إليها سلوى بقرف وقالت: حتى لو هأنزله.

عندما مرتا أمام بوابة الفيلا وجدتا فايز وقدرى يجلسان في الحديقة، وقفنا جانباً وأشارت سلوى لفايز لأنها لم تنتبه أن قدرى هو جليسه فقام إليهما، سألته عما حدث وأين كان مختفياً فأخبرها أنها حكاية طويلة.

ثم طلب منهما أن تدخلتا لتأكلا شيئاً فوافقتا على الفور، أمسكت سلوى يد فايز وهما يدخلان إلى الفيلا وقالت: وحشتني يا فايز.

- وأنت كمان يا سلوى.

- أنا.. الظاهر.. حبلى منك.

تسمرت قدماه وأحس أن الدنيا تدور به، نظر إلى طفولتها البريئة، ونحافة جسدها ورأى نفسه لأول مرة من الخارج.

رأى ذنباً متوحشاً بلا مشاعر ولا رحمة ولا مروءة ولا أخلاق ولا وفاء.

قال لها: حامل.. مني!

كانا في منتصف الصالة أبطأته، ورفعت وجهها لأعلى، استغرقت في قبلة كعشيقين والهيّن. وعبير تشاهدهما وتقول : ناس تحب وناس ترفع . . .

خرجت فوزية من المطبخ وفي يديها صينية عليها سندويشات وزجاجات لبن للرضاعة، شاهدت فايز يقبل ابنتها سلوى، وهي تبارك له أنه أبو وليدها القادم.

سقطت الصينية من يد فوزية ثم هوت إلى الأرض.

اندفعت سلوى نحوها وصرخت: ماما؟

وقف فايز مذهولاً وكأنما أصابه الشلل في كيانه كله، حاول أن يحرك يديه أو قدميه أو لسانه لكنه لم يستطع لقد انخرست جميع حواسه دفعة واحدة وتهوى راکعاً على ركبتيه ثم سقط على جانبه الأيسر ولم يتحرك، وخلال ساعة واحدة كان ممدداً على ظهره في المستشفى وفوزية تبكي بجواره وتركت سلوى وعبير وهند يهتمون بالأطفال الأربعة.

٢٧

الطابق الأرضي من الفيلا أصبح مشحمة سيارات، تدر مبالغ ممتازة لفائز، أما الحب العظيم الذي كان يعمر قلب فوزية تجاهه

فقد بهت وخفتت جذوة رغبته في القرب والوداد، لكنه ظل حباً عامراً بالوفاء والعطاء والاهتمام، رغم الشرخ الهائل الذي حدث لفوزية بعد الاكتشاف الذي حطم روحها.

أنجبت سلوى فتاة من علاقتها بفايز، في سرية تامة ولم تخرج من الفيلا أبداً منذ ارتفاع بطنها خوفاً من إلقاء فايز في السجن بسببها.

ظلت فوزية ترعى الجميع بإخلاص وتفان ووفاء نادر لا يتكرر في حياة البشر إلا في القصص الخرافية، حتى تعافي فايز من الشلل الرباعي لكنه احتفظ بتذكّار من الحادث عجز جنسي كامل.

منى تعافت وظلت لفترة نقاهة بالمستشفى وعادت لبيتها مع أختها صفاء بذاكرة جديدة ممحاة ليس فيها شيء، وكانت تتعرف على أطفالها وملابسها وغرفتها برهبة وخوف كطفلة تائهة التقطها أغراب لا تفهم حقيقة مشاعرهم نحوها، الشفقة والأسى فقط كانت تستطيع منى إدراكهما في أعين الجميع، أما مشاعرهما تجاه فايز فقد نمت وتطورت في وقت قصير وبلغت حد الغرام، كانت تحس بالأمان والراحة والونس والطمأنينة وتتحفز مشاعر حلوة شيقة تتقاذف كتنقل العصافير المتوترة على الأغصان داخل قلبها في كل تعاملاتها مع فايز المقعد، أحبته بعقلها القديم وعقلها الجديد وقلبها الواحد.

ظلت صفاء معها أسبوعين ثم سافرت إلى دمياط، وأبلغت زوجها في اليونان أنها عادت للبيت وأن منى تعافت، صفاء التي لم تنجب

ترك الأطفال الكثيرون في فيلا منى حفرة غائرة بقلبها وفكرت في تبني طفلة جميلة بأي وسيلة.

ماتت فتاة مراهقة بسبب جرعة مخدرات زائدة، كان والدها شخصاً مسؤولاً في جهة سيادية، تم القبض على قدري وأغلقت الصيدلية وتم سحب تراخيصها.

الشلل أنقذ فايز من فضيحة الصيدلية وأخرجه المحامي من القضية كخروج الخيط من الإبرة، فهو رجل مشلول لا يخرج من بيته ولا يعلم أي شيء عن تجارة المخدرات في الصيدلية واعترف قدري أن فايز لا علاقة له بالأمر ولم يذكر قدري من أين كان يحصل على المخدرات ولم يتحدث عن الباشا المندوب الذي كان يحضر إليه الحصة بسيارته حتى باب الصيدلية وهكذا كان سجيناً منعماً ولديه كل ما يحتاج إليه، وظل فايز يرسل مرتبه الشهري لأسرته ويقوم على رعاية زوجته الشابة وطفلته الوحيدة مستعيناً بفوزية.

فايز تعافى بعد عامين من العلاج والتمارين الرياضية وسار على قدميه مرة أخرى وأصبح داعية إسلامياً معروفاً ومعالجاً روحانياً وله فتوحات في التداوي بالأعشاب، ومؤلفات عديدة ونجماً تلفزيونياً.

سميحة لم تحقق حلمها في الوصول إلى منصب وزيرة، أجرت عمليتين جراحيتين استأصلت صدرها فيهما، فقدت شعرها وحاجبيها في فترة العلاج المكثف، لكنها استطاعت المقاومة

والتغلب على المرض وظلت محبة متمسكة بالحياة فتمسكت بها، ورغم أنها تخلت عن فايز في اللحظات العصيبة، وأخبرت ابنتها في البداية أن أباه مات في حادث، عادت للتودد إليه بعد ذبوع صيته ونجاحه المذهل وحاولت إقناعه بإمكانية عودتهما لبعضهما لأجل مستقبل روزاليا ، لكن فايز طلب منها تأجيل الحديث في هذا الموضوع لوقت آخر ودعاها لحضور حفل عيد ميلاده، لأن هناك مفاجأة حلوة لأجلها.

كان فايز منذ أسابيع قد استعان بأشهر نحات في مصر ليصنع تمثالاً شاهقاً في حديقة الفيلا ، وفي ليلة الاحتفال بعيد ميلاده قام بإزاحة الستار عن التمثال الفخم، كان تمثالاً رائعاً لفوزية.

٢٨

الطائر الأسود الذي تجسد في هيئة الصبي الأمرد الذي استدرج فايز إلى غرفة فوزية في الماضي، ظل يستمتع بالدخول إلى الغرف ذات النوافذ المفتوحة في الليل.

قبل أن تتلف عوامل التعرية جدران فيلا منى، غابت وجوه وشبت عن الطوق وجوه، سبعة أطفال جعلت منهم فوزية أطباء ومهندسين

ومدرسين وتجاراً، وأرادت سلوى أن تكون راقصة وكانت، وفتحت جناحيها للحياة بطريقتها بعيداً عن أمها وإخوتها.

أدركت سميحة أن قابض الأنفس عندما سلب منها أمها شيماء وهي على سجادة الصلاة تضيء وجهها الطمأنينة والسرور، أن الحياة ليست ذهباً وأموالاً ومناصب فقط، وأنه يمكن دائماً تغيير الطريق وأنَّ الإنسان عندما يتنكَّرُ للأشخاص الذين أحبَّهم والأشياء التي أحبَّته، سيَتَنكَّرُ له كلُّ شيءٍ حتى جسده.

جيهان بعد انقضاء العقوبة نقلتها مدن ووضعتها مدن، واستقرت كعاملة نظافة في مستشفى كبير، لم تستطع أبداً هزيمة حيوانها الأخرس كان وفاؤها لهذا النبض اللوح كاملاً، كان يقودها بقوة ويسيطر عليها، حتى قتلها بسكتة قلبية في حضان حارس أمن شاب زميل لها وهي في عامها السابع والسبعين، سقطت أسنان ونبتت لها أسنان أخرى.

الأيامُ مَنَحَتْ فَايَزَ الوقتَ الكافي للُبْكَاءِ وإعادةِ إعمارِ الخرائبِ التي في قلبه، والسنواتُ التي عاشها مع العجزِ كانت أعظمَ سنواتِ عُمره، لأنَّه عندما فَقَدَ حيوانَهُ الأخرسَ، وَجَدَ الإنسانَ الكاملَ.